

تأليف

محمد عبد القادر سراج الدين

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر



تأليف

محمد عبد القادر سراج الدين

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

الى الروح الطاهرة

اليك في حياتك الخالدة الى روحك الطاهره الى حنانك الأبوى أقدم أول قطره من دموع حياتى أسطرها من حبات قلبي ، أستمد من فضيلة الحب بيانًا ومن صفاء الخيال قوة ومن جمال الحقيقة سحرًا ومن بركم بولدكم والناس وفاء ونورًا ،

كلمة امير الشعر والبيان

« سعادة احمد شوقي بك »

« قرأت فصول هذه الرواية ولما تقدم للطبع فوجدت »
« قصصاً حسنا أنساقت عباراته أسلس مساق واتسقت »
« حوادثه ألطف اتساق وتجانس الاشخاص على ملابه »
« وتمكنوا في نواحيهم فليس منهم من نبا به موضعه أو ثقل على »
« القارىء مطلعه الا ماندر ومالم يسلم أصحاب القصص المطولة »
« من الوقوع فيه ولقد طالما تمنيت أن يكون لشبان الوطن »
« ونجباء طلبة العلم من أبنائه أشغال يستريحون اليها من »
« دروسهم ويقبلون عليها بهوى نفوسهم فيفيدون ويستفيدون »
« ويستحدثون ويجددون ويستدفعون شيطان الفراغ اذا أعيى »
« بشيطان الشباب وأى شغل أروح للنفس وأجلب للأنس »
« وأشحذ للذهن وأبعث لنشاط الخيال من هذا الفن الذى أجمع »
« المفكرون على حسن أثره في تهذيب النفوس وترقية الاخلاق »
« لذلك كان سروري بهذه الرواية حين دفعها الى واضعها النابغ »
« سراج الدين لا يعد له الا أعجابي بقدرة خياله وعذوبة بيانه »
« والطف اختراعه للحوادث »

احمد شوقي

١٠ / ٣ / ١٩٢٤

مقدمة

أعتاد الكتاب والروائيون تصدير كتبهم بمقدمات يفصحون فيها عن الأغراض التى يرمون اليها فى ثنايا سطورهم واقد أردت أن أحذو أثرهم فوجدت أن القلم سيطوى منى عدة صفحات لا يضيرنى الاتيان عليها . ولكنى تحققت أن مثل هاته الخلاصات طالما أذهبت برواء الكتاب وطمست من آثار الدقة وقوضت معالم الاتقان وخاصة فى الروايات الموضوعه . و لا أقول سوي أن هذه الرواية التي أقدمها اليوم انما اردت بها تصوير الحب فى مثله الأعلى وابرائه من اتهام البعض له من أنه عاطفة حيوانه غايتها اشباع الشهوات واستباحة ماتدفع اليه الطبيعة البهيميه فيسيئون الى معبود معصوم ويشوهون معنى من أكبر معانى الحياة ويفرطون عقدا هو زينة كل حى وسلوة كل محزون ، هو جُمّاع السجايا النبيلة والمبادىء السامية ، وهو أصل والفضائل كلها غصونه .

واقد استمليت من وجدانى عونا على تصوير تلكم المبادىء

الشريفة ومن مشاعرى روحا ضمنته غاية هاته الرواية وما أبغى غير انصاف العظمة الحقيقة فى هذا الوجود . والخلود الحي مابقي هذا السكون ، ذلك هو « الحب » الذى نشأ وترعرع منذ كان العالم . فهو الذى يربط الام بفلذة كبدها والاب بحشاشة صدره والزوج بزوجه ، والصديق بصديقه والحبيب بحبيبته والجار بجاره والعشير بالعشير

أنا لا أعرف لماذا وجد العالم وخلق الانسان ؛ وأنا أعلم أن العالم هوان وآلام وأن الحياة عناء وتعب كان الحب فيها دائماً مسرياً لهمومه ومخففاً لتكاليفها بل هو مصدر السعادة فيها

واذا كان هذا شأن الحب من السمو الذى نحسه فى كل مشاهدنا فقد نباسهم من يتهم الحب أو يسىء تصويره ويرتكب باسمه الجميل النقى أوزارا هو منها برىء

أيه أيها الحب كم من آثام ترتكب باسمك كل يوم وكم من شهوات بهيميه وسوآت منكره يهوى اليها ضعفاء النفوس ثم يلقون عليك أثم طغيانهم . وهأنذا أستمد من وحى الحب قوة وبيانا أصور به جلال الحب فى وقائع ملموسة مترعة بالعبرة فياضة بالذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد

***

وأنى فى ختام هذه الكلمة لا يفوتنى أن أتقدم بكلمة اعتذار أرجوا أن يتقبلها منى أمير الشعراء ورب اليراع سعادة أحمد شوقى بك لعجزى عن ايفاء شكره. لقد طوق هذه الرواية فضلا من شريف عنايته وخصص اقراءتها قبل أن تقدم للطبع ردحا من وقته الثمين فما أرخصه وما أجل تواضعه، بارك الله فيه ونضر أيامه

وأتقدم بشكرى لاخوانى وأصدقائى الذين تفضلوا بارشاداتهم النافعه فى انجاز هذه الباكورة وأدعو الحق سبحانه أن يلهم الجميع نعمة السداد والصواب لخير البلاد والسلام ؟

محمد عبد القادر سراج الدين

١٥ / ٤ / ١٩٢٤

١

التمثال

يرى الزائر عند مدخل متحف مدينة مكسيكو تمثالا مصنوعا من البرنز لشاب نقش اسمه عند قاعدته تدل سيماه على جمال الطلعة حاد البصر والذهن وقاد القريحة تشع من اساريره دلائل الفطنة والذكاء كما يدل مجموع وجهه على دماثة اخلاق وخفة الروح واطفها ثم الجرأة والمخاطرة وتحمل الآلام في شدائد الامور . تمثال عجيب يدل على مهارة صانعه ونباهة مبدعه فهو تمثال ناطق كأنه يتكلم لمحة واحدة كافية لان تورد في خيالك ماهية ذلك الشخص الذي يمثله وتملي عليك كثيرا من أوصافه وخلاله ، ولا عجب اذا رأينا مثل هذا التمثال في بلد كمدينة مكسيك عرف أهلها منذ القدم بحذقهم في فن النحت

كانت اول نظره القيتها على ذلك التمثال كافية لاثارة اهتمامي التقصي عن أصله وتاريخه واقد بلغ بي الكلف بهذا الامر اشغلني عن التدقيق في رؤية ما حولي من الآثار والمخلفات

وزاد اهتمامي بمعرفة صاحبه ما رأيت في ملامحه من السحنة الفرنسوية
فهو أذن من مواطني هاجر الى هذه الاصقاع من زمن بعيد
فماذا كان شأنه بهذه البلاد حتى أقاموا له هذا التمثال بين
تراث أجدادهم ومجد أسلافهم ؟ على أن قلة معرفتي باللغة
المكسيكية التي تغلب فيها الاسبانية قد حال دون جرأتي على
سؤال أحد الحراس او العمال الذين بالمتحف وكلهم من الوطنيين
ولكن الرغبة الشديدة التي نبتت في نفسي كانت تدفعني دائما الى
السؤال وفي تلك اللحظة التقيت بموظف كان مارا من أمامي
علمت من الحارس الذي بجانبي أنه وكيل المتحف فأستوقفته ثم
استسمحته وخاطبته بالفرنسية سائلا أياه أن يزودني ببعض
المعلومات عن « المسيو رولاند أدعون » صاحب ذلك التمثال
البرنزي القائم عند مدخل المتحف فابتسم وما لبثت ابتسامته
أن تلاشت بين سحابة الدهشة والعجب التي علت جبينه عندما
ذكرت له اسم « رولاند » كأنه دهش أن يرى سائلا يستفسره
عن هذا الاسم أو كأنه فرض أن جميع الناس يعلمون بشهرة
ذلك الشخص ! فكيف بي اسأله هذا السؤال : نظر الي
ثم قال :

يظهر لي ياسيدى أنك حديث العهد ببلادنا ولعل هذه اول زيارة لك لهذا المتحف

نعم ، فقد حضرت من فرنسا منذ اسبوع

حسنا ، أما «المسيو رولاند» وأظنك تود كفرنسى أن تعرف عنه الشيء الكثير فهو ذلك الأثرى الشهير الذى بعث مجد بلاد المكسيك وكشف النقاب عن مدنيتها السالفة التي توجت تاريخنا بأعظم فخر واكبر اعظام ، لقد كان هو مكتشف معبد الملك «منتزوما» أى مكتشف آثار العصر الذهبي في تاريخ بلادنا ، لم يكن المسيو رولاند منذ نشأته أثريا وانما له قصة غريبة يلذ لكل شخص وخاصة كل فرنسى الاطلاع عليها والوقوف على أسرار تلك الحياة الحافلة بجلائل اعمال أحد مواطنيه الذين يقدمون اليه مثالا عاليا من سمو النفس ونبلها جدير بأن يكون له قدوة في حياته ولكن ليس هذا ياسيدى محل ذكر شيء من ذلك التاريخ الجليل ومع هذا فلكى تستطيع أن تتصور جلال العمل الذى قام به فانه يكفيك ان تلقى نظرة واحدة على محتويات الجناح الايمن من هذا المتحف وهي جميعها من مكتشفاته وقد نقلت منذ أعوام قليلة من مكانها الذي وجدت فيه حيث بقيت هناك عهدا

طويلا بعد اكتشافها الى أن هيأت لها مصادفة الآثار ذلك العجائب

قال ذلك ثم أراد أستئناف سيره ولكن مانوه به عن حياة المسيو رولاند كان لايزال عالقا بذاكرتي وقد قوي في رغبة الاستطلاع على اسرار حياة ذلك العظيم ، لذا استمهلته مرة اخرى وسألته كيف استطيع الاطلاع على تاريخ حياة المسيو رولاند؟ هل هو مكتوب في كتاب أم هو محفوظ بالتواتر أم هو منقوش على بعض الآثار أم ماذا يكون الطريق او الوسيلة الى الوقوف عليه؟ فأجابني ليست قصة المسيو رولاند خيالية حفظتها الناس بالتواتر ولاهي ترجع الى العصور القديمة أيام أن كانوا ينحتون كتبهم وعباراتهم فوق الاحجار والصخور وانما هي قصة من القصص الشيقة صادفت هوى لدى الذين انتهت الى علمهم في غضون القرن الماضي وتناقلها العارفون بها عن مذكرات المسيو رولاند نفسه الذي كتب معظمها بخط يده ثم أتمت بقيتها صديقته لوسي ماعدا الفصلين الآخيرين فقد وضعهما المستر «ابراهام» مدير المتحف اذ ذاك الذي قام بطبع هذه المذكرات في شكل قصة فيما بعد .

ولما كان المسيو رولاند قد قضى نحبه في هذه البلاد ومن بعده

صديقته لوسى فقد استولت المدينة مدينة المكسيك على هذه المذكرات وعهدت الى المستر «ابراهام» بترتيبها وتنسيقها ثم طبعها ونشرها بين الناس تخليداً لذكرى ذلك العالم الفاضل وتجد المذكرات الاصلية مع بعض النسخ المطبوعه محفوظة حتى اليوم فى احدى حجر هذا المتحف اما ما نشر من نسخ هذه المذكرات فقد تلقفته الايدى منذ الساعة الاولى لظهورها واحتفظ كل بها احتراز ومن تجد عنده بعض هذه النسخ فأنك تراه قد وضعها ضمن مجموعة آثاره الغالية . هذا ما كان من أمر مذكرات المسيو رولاند التى هى عباره عن تقرير لحياته الحافلة بجلائل اعماله الباهره

ولما يظهر لي ياسيدي من أنك شغف بالاطلاع على هذه القصة وقد لا يتسنى لك ذلك فيمكننى ان اعاونك على تذليل هذه المشقة بان اعيرك أحدى النسخ المحفوظة عندنا ، فامتلأ قلبي سروراً وشكرت لصاحبي حسن شعوره وعواطفه ثم تبعته الى مكتبه وقدمت اليه بطاقتي وعرفته بنفسى وكذلك قدم لى بطاقته فتقبلتها منه شاكراً ، ثم رافقني بعد ذلك الى الجناح الأيمن من المتحف حيث بهرتني ما فيه من الآثار النفيسة وفى أثناء جولتنا بين الكنوز تناول الوكيل مفتاحاً من جيبه وفتح مصراعاً زجاجياً

أخرج من خلفه غلافاً من الجلد فتحه وناولني منه كتاباً متوسط الحجم مكتوباً عليه عنواناً كبيراً هو « حياة المسيو رولاند أدمون مكتشف مقابر الملك منتزوما » وهنا برقت عيناى بهجة وفرحا وانحنيت شاكراً له جميل صنعه وبعد أن انتهينا من رؤية جميع النفائس التى يضمها ذلك الجناح ودعته وخرجت .

تلك القصة أو ذلك التاريخ العجيب الذى اشتملت عليه صحائف ذلك الكتاب الذى قرأته فى الايام القليلة التالية هو بعينه الذى ساودعه أوراق هذه الرواية التى أقدمها اليوم للقارىء الكريم ولقد نقلتها بقليل من التصرف وقصدت فيها الاسلوب القصصى حتى تكون أسهل متناولا وأكثر تسلية ، وهى موضوع لسان المسيو رولاند نفسه اذ بدأها بذكريات عهد طفولته ...

٢

حياة الطفولة

يجتاز الانسان حياة الطفولة ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى حلم لذيذ يفيض فيه نهر السعادة والهناء ثم يستيقظ منه فجأة فيرى أنوار الحياة الجديدة وهي تشع عليه بضيائها اللامعة الكبيرة ، المنيرة المتممة ، في تلك الساعة لا نعلم أين أصبحنا ومن نكون ؟ بعد تلك الحياة الصافية حيث لا ألم ولا حزن . حياة كانت أبدية لا نعرف لها نهاية

ماذا يعكر على الطفل حياته وهى حياة كلها مملوءة سذاجة وطهارة ، أى ألم يشعر به أو أى شاغل يهمه ، انها حياة تسرى فيها روح العطف من تلك القلوب الصغيرة النقية التى هى كقلوب الطيور المغردة والعصافير المزقزقة ، قلوب أطفال تفيض كلها حنانا خالصا بعضها نحو البعض الآخر ، حياة تتوجها الوداعة وخفة الروح ، انها حقيقة جديرة بأن تكون حياة خالدة ترفرف عليها أجنحة السلام والطمأنينة

أنى أرانى قد نسيت كل شىء فلقد تشمع من خيالى ذكرى
ماضى ذلك العهد السعيد والحياة الهنيئة فأمست سطورها خفيفة
متسارعة نحو المحو والزوال فهى أشبه بالسطور التى تخطها على
صفحات الماء أو على وجه الرمال ، لا تزال تمحوها الرياح شيئاً
فشيئاً حتى تتلاشى تماماً ، كذلك سطور ذاكرتى فانها أمست
ملوثة متجعدة عبثت بها الايام والاعوام حتى محت كثيراً
من محفوظاتها .

أن طفولتى بعيدة العهد انكر كثيراً من حوادثها ولا أعى
أيامها الاولى ، أرجع بتصوراتى وخيالى الى آثارها المتيقه فأراها
قد احتضنتها الأبدية حيث تروي الحوادث بين أطباق عصورها
المتعاقبة البالية .

على أنى مازلت أذكر تلك السماء الصافية والطبيعة البهية
التى طالما انتعشت برؤيتها وكيف افترشت العشب الاخضر
مراراً وعبرت الحقول والمزارع طولا وعرضاً تارة سيراً هادئاً
وأخرى عدواً سريعاً أقضى فى ذلك الساعات الطوال دون أن
يعتريني ملل أو كلال ، ثم كيف كان لى في ماء قنواتها ومراويها
يماً مترامى الاطراف أطلق فيه عنان سفني وجوارى المصنوعة

من الورق حيناً ومن الخشب أخرى وهى تحمله بأنواع المشحونات من غلال وأكياس مما كان يستفرغ كل اهتمامى فأمضى فى هذا السفر الذى كان لا يتعدى أمتاراً معدودة نهاراً كاملا كنت أعده أبهج أيامى وأسعدها

ثم أذكر كيف كانت السحب المتكاثفة المتلبدة في السماء التى تلقى بظلامها الدامس الرعب والهلع في النفوس ثم الرعد والقصف الذى كان ينذر بالصواعق والشهب وكيف أن البرد والامطار تهمى بعد ذلك بغزارتها فنتلقاها بالبشر والسرور ثم كيف كنا ننتظر بفروغ صبر أن نرى تلك الالوان السبعة الجميلة ألوان قوس قزح التى كانت تطير لرؤياها نفوسنا فرحا وبهجة ، ثم كيف كنا نعجب بشجاعة بعض تلك العصافير المتمشية الوثابة التى كانت قلوبنا مثل قلوبها تبتهج لسقوط الامطار والغيوث فنقف ننشد لها الاناشيد والاغانى ثم كيف كانت تملأ قلوبنا الرحمة لتلك الطيور الشاردة الصارخة الباحثة عن مأواها الفارة أمام جيوش الامطار والزوابع .

وكذلك أذكر ذلك البناء الجميل الذى نشأت فيه وتربيت بين جدرانه ، كم أشعر بعاطفة حنان شديدة لذكرى الايام التى

قضيتها فيه ، أجل أنها عاطفة ممزوجة بلذة وشوق ووجد ..

كم تذكرني زواياه بالدمى العديدة واللعبيات الكثيرة التي كنت اواريها بينها وكم تذكرني رؤياه بأيام الاعياد والمواسم التي مرت علي فيه وأزهار شم النسيم ورياحينه وورده ..

أيه لقد تقادمت الايام ومرت الاعوام حتى انطمس كثير من حوادث الماضي ، أني أراني ناسياً كل شئ فيالك من ذاكرة ضعيفة أضعت أحلى ذكريات أيامك السالفة وحياتك الغابرة .

ذاك ما أعيه من أيام الطفولة تتخلله وجوه أصدقائي ورفاقي العديدين الذين كانوا يشاركونني كل اعمالي ثم وجوه افراد اسرتي المحبوبة ثم حدائق وأعشاب وخضراوات ناضرة ومياه جارية وسماء صافية وشمس ساطعة ...



في المدرسة

مضت الاعوام وانطوت كأنها ما بين شروق شمس وغروبها وتركت قريتي حيث سعدت بتلك الحياة الصافية حياة الطفولة المتلألئة التي لها في الخيال لمعان كضياء الكواكب المنيرة في وسط الدجى الدامس ، وحيث تلقيت فيها أساس تربيتي ومبادئ تعليمي الاولى بين جدران مدرستها الابتدائية التي لها أحسن أثر في نفسي .

والآن وقد انتقلت الى جامعة باريس حيث أرى فيها كل شيء غريب لدي فقد اخذت تتوارد على ذاكرتي سني الماضية وأيامي الفائتة وبدأت سلسلة الحوادث السالفة والمناظر العديدة تمر أمامي واحدة بعد واحدة فذكرت حقول القرية ونضرتها وسماءها وزرقتها ومياهها ولمعانها ، كما ذكرت رفاقي واصدقائي فذكرت معهم العابنا ونوادر طفولتنا ، ثم ذكرت معلمي في المدرسة وأبي وأمي واخوتي وعائلتي فسرت في نفسي عاطفة الحنان والشوق وكذلك استمرت رأسي تفيض بحوادث الماضي الجمة حتى شعرت

بضيق يتملك فؤادي فهممت أسير من مكانى أنفض عني أثر هذه الذكريات الباعثه لألمي وحزني وبينما أنا أتقدم في سيري وجدتني قد خلفت الجامعة ورائي وأني صرت في منتصف الشارع المجاور لها وهنا توقفت قليلا ولكني عزمت أخيراً على الوصول الى نهاية الشارع ثم أعود الى الجامعة ، وما بلغت المكان المزمع حتى شخصت عيني تنظر الى شاب قادم في الطريق فتممت في نفسي قائلا « أليس هذا هو خادم الكونت دارتوي شريف قريتنا وجارنا في المسكن ؟ أجل انه هو خادمه وكثيراً ما رأيته بين فناء القصر وكثيراً ما أهداني بعض الازهار الجميلة ، هو مارلو بعينه هو هو » ثم صحت منادياً وكان في الجانب الآخر من الشارع :

« مارلو — مارلو . . . »

أخذ مارلو ينظر حوله وكانه لم يعرفني في بادىء الامر فتردد هل يقف أو يتقدم في طريقه وارتفعت من جبينه أزمة اضطراب شديدة وما لحني وأنا أشير اليه بيدي حتى تقدم نحوي وذكر ما غاب عنه اولا ثم حياني وقال :

أجل يا سيدي ! أرجو أن تكون متمتعا بتمام الصحة والهناءة.

اني لله الحمد بخير وأود أن تكون سعيداً كذلك يا مارلو .

شكراً لك ياسيدي ومتى حضرت من القرية ؟

جئت منذ أسبوعين والتحقت بجامعة باريس ولكن من

أين أنت آت الآن يامارلو ؟

انى آت من قصر سيدي الكونت.

وهل الكونت يقطن هذا الحي ؟

هو كذلك ، وقصره هو البناء الثامن فى الجهة اليمني من هذا

الشارع شكراً لك يامارلو ، ثم ناولته فرنكا واستأنفت سيري ،

على انى عزمت فى الحال على زيارة أسرة الكونت ، مواطن قريتنا

وجارنا بها وصديق عائلتنا ولكن لما كان الوقت متأخرا فقد

أجلت زيارتى الى الغد وعدت الى الجامعة .

وفي منتصف الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي قصدت

قصر الكونت وما التقيت به بين ابنائه وافراد عائلته حتى امتلأ

قلبي بعاطفة البهجة والارتياح فحييتهم بشوق وابتهاج فقابلوا تحيتي

بأحسن منها ثم جلسنا جميعاً واخذنا نتجاذب اطراف الاحاديث

بين الماضى والحاضر وبينما اسمع لهم واتحدث اليهم اذ تملكتنى

عاطفة غريبة لم اشعر بها من قبل كما شعرت برغبة لا تقاوم للنظر

الى اتجاه معين من الحجرة التى كنا جالسين فيها ، ذلك الاتجاه

هو حيث كانت لوسى ابنة الكونت الكبرى فلما التقى بها نظرى احسست انى اسمع اذ ذاك دقات قلبي المتسارعة المتباطئة فأرخيت طرفي مرغما حتى لا يفطن لامرى احد ثم اسدلت على افكارى ستار الخفاء والنسيان ، على ان ذلك الامر أمسى بعد خروجى من قصر الكونت باعثاً لدهشتي ومصدراً لتفكير طويل فى الايام التالية حتى حرت فى نفسي من امر هذا الشعور الغريب الذى لم استطع ان افهم كنهه.

بعد ذلك كنت اذهب احيانا الى القصر ومنذ ذلك العهد صرت أرى فى كثير من الاوقات صورة ترتفع من اعماق خيالى تبدو أولا كالطيف ثم تتجسم شيئا فشيئا وتتشكل وتظهر صورة كاملة تقترب منى قليلا قليلا وتشع على بضيائها فتنير ظلمات نفسى وتقف ماثلة أمامى ساعة تبهرنى بانوارها تستملك فيها على لبى وتخلب فؤادى

عرفت اخيرا أن تلك العاطفة الغريبة التى شعرت بها منذ بضعة اسابيع هى الحب وأن هذه الصورة هى صورته . .



عيد الميلاد

كنت فى زيارة الكونت فى يوم من أواخر شهر ديسمبر فعرض على قضاء فترة عيد الميلاد مع اسرته في قرية ڤارن وهى لاتبعد كثيرا عن باريس حيث يملك الكونت ضياعا واراضى واسعة وحيث تشتهر هذه القرية بمناظرها الجميلة وجبالها الشامخة التي تتوجها تيجان بيضاء من الثلوج والجليد .

حسبت هذه الدعوة هبة جزيلة ساقتها لى يد الاقدار وما كنت أحلم بها من قبل فهى فرصة عديمة النظير ساستطيع فيها أن اجد لوسى بجانبي فى كل وقت ، سيضمنا جدار واحد ومائدة واحدة ، سنجلس ونتحادث ، سنبتسم ونتسامر ، سأكون أو سنكون سعيدين بأنفسنا حقاً انه حلم وسوف يكون تأويله قريبا

وفي اليوم الثانى من شهر يناير كان القطار يقلنا جميعا الى قرية الكونت وبينما كان الكونت مع قرينته يطلعان على الصحف اليومية وقد نشبت بينهما مناقشة حادة اشأن من

الشئون السياسية، كنت انا ولوسى نطل من احدى نوافذ القاطرة نستعرض مناظر الطبيعة الخلابة ونسبح مع امواجها فى بحرها الخضم الشاسع الاطراف وكذلك قضينا ساعة من الزمان تفاءلت بها خيراً بهناءة الأيام المقبلة

وصلنا حوالى الظهر الى المحطة فاقلتنا منها سيارتان ركب فى اولاهما الكونت وقرينته وابنتهما الصغرى ، واما الثانية فقد اقلتنا أنا ولوسى وأخيها شارل؛ وبعد نحو نصف ساعة وصلنا قصر الكونت وهو بناء شامخ جميل يشرف على ربوة تتدرج فوق الجبل اكثر من مائة متر وتلتف حوله حديقة كبيرة فيها انواع الاشجار والنباتات المختلفة

وما نزلنا بالقصر حتى اتخذ كل منا حجرته ، وكانت حجر الكونت وقرينته فى الطبقة العليا ، اما حجرتي وحجر ابنائه فكانت في الطبقة الاولى وكان لدينا فى نفس الطبقة حجرة كبيرة للمطالعة بها مكتبة فيها كثير من الكتب والمجلات والمؤلفات كما كان بجانبها حجرة اخرى للموسيقى فيها كثير من آلات العزف والطرب؛ وهى التي ابتهجت لوجودها اكثر من اى شئ آخر

امضينا بعد وصولنا يومين ونحن ننتقل بين حجرة المطالعة

الى حجرة الموسيقى الى فناء الحديقة الى التجول فى داخل القرية الى غير ذلك من الجهات المجاورة مما لا يتعدى النواحى القريبة جدا — ولما كان مساء اليوم الثالث جاءنى شارل وقال :

هل تحب أن ترافقنا ؟

الى أين ؟

لقد عزمت أنا ولوسى على الطواف طول نهار الغد بين الجبال المجاورة وسترافقنا معدات الصيد والقنص ومنها الكلب الأمين « بوبى »

حسن . هذه فكرة جميلة وانى سأكون سعيداً جداً برافقتكما

اذن فيجب أن تستيقظ مبكراً

هو كذلك

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى كنا جميعاً شارل ولوسى وأنا على تمام الاهبة وقد ارتدينا الملابس الخاصة برحلتنا وحمل كل منا عصا حديديه مدببة الطرف لتسلق الجبال ثم بندقية للصيد مع كمية من الذخيرة وكذلك فعلت لوسى لانها كانت تجيد الرمى بالرصاص كما حمل كل منا أنا وشارل حقيبة صغيرة فيها بعض

الاطعمة اللازمة لنا .

كان ضياء النهار لايزال ضئيلا لأن شمس الشتاء لم تكن تبزغ بعد وكانت اسلاب الليل البائد لاتزال تتشابك مع أنوار الفجر النابت فرأينا فى تلك الساعة فرصة جميلة للاسراع باستقبال ملك النور من أعلى رابية نصلها حتى نمتع الطرف بمشاهد تلك المعركة السلمية بين فلول الجيش الاسود المخزول وبين طلائع الجيش الابيض المنتصر

مددنا الخطا وأخذنا نفرس سفح الجبل بعصينا وكنا فى الحقيقة لم نكن نستطيع أن نلثم الارض باطرافها المدببة أكثر من عشرين أو خمس وعشرين مرة دفعة واحدة أى بمقدار عشرين مترا تقريبا ثم نقف لنستريح بعدها قليلا، ولقد عانينا من الجهد فى هذا التسلق الشىء الكثير حتى تصبب منا العرق رغم برودة الجو العظيمة ، وكانت وعورة الطريق وكثرة انعطافها وتعاريجها عاملا على زيادة عنائنا وخصوصاً كلما اعترضنا بعض الحشائش الكثيفه التى كانت تضطرنا غالباً الى تحويل طريقنا فى تجاه آخر على انه مع ذلك كانت عملية الصعود هذه مع صعوبتها ممزوجة بشىء من اللذة ، اذ كان يخففها عنا تلك المناظر التى

تستجمع الالباب وتسلب الفؤاد ، مناظر الجبال المتدرجة من قمة السماء الى حضيض الثرى مناظر تلك الاشجار والادغال المتناثرة بين الصخور والاطواد مناظر الطيور المغردة المهاجرة من اوكارها في الصباح الباكر تشجى الملائكة بنغماتها وتسبح باسم خالقها الكريم ثم مناظر تلك الاضواء البيضاء الممتزجة بذلك اللون الارجواني الذى يوقظ القلوب من مراقدها والنفوس من ثباتها يذكرها بسابق الغرام وسالف الحب .

استمر بنا السير حتى بلغنا رابية مسطحة مكسوة بالخضرة والحشائش السندسيه ، فالقينا عليها عصا التسيار ووجهنا وجوهنا شطر الصباح نستقبل ملكة البهاء وحلية الأفق عندما تميد الى العالم ببهجته وتمسح عن الكون سنة غفلته ، وما مر قليل من الزمن حتى رشقتنا بماسة من ماساتها المتلألئة فاهتزت لها القلوب طربا وسرورا ثم تبعتها بلآلئها اللامعة المضيئة واحدة بعد واحدة فكونت من ذلك عقداً طويلا وتبعت ذلك العقد بعقود أخر حتى أتمت ترصيع جيد السماء بخيوطها الماسية البيضاء وما انقضت بضع دقائق حتى اتمت نسجها وملأت الكون باشعتها بين البهاء والجلال

عزمنا بعد ذلك على مباشرة أعمال الصيد فرفعنا البنادق بين أيدينا وتقدمنا « بوبي » وقد شمخ برأسه وأذنيه علامة أهبته واستعداده ولما كنا لازلنا فى باكورة النهار ، وكانت هذه فرصة ملائمة لمباغتة كثير من اسراب الطير المتنقله من اوكارها فوق سفوح الجبال، ولاحظنا مرور بعض وحدات من الطير آتية من الجهة الغربيه ، لذلك ولينا وجوهنا نحو الغرب وأخذنا نتحين الفرص بفروغ صبر ولم يطل بنا السير حتى سمعنا فوق رءوسنا أصواتاً كثيرة وخشخشة خفيفة ولكن الضباب المنتشر اذ ذاك عاقنا قليلا عن البت فى الأمر الا أن الاصوات استمرت تزداد وضوحا كأنها كانت تقترب منا ولما تبيناها وجدنا أنها سرب كبير من الطير المسمى « البجع » فسددنا اليه نحن الثلاثة الرمى ثم دوي الجو بطلقات البنادق فخر كثير من ذلك السرب الذى جد فى الطيران فلم نحاول مطاردته بعد ، وبينما كنا نحشو بنادقنا بطلقات جديدة كان « بوبي » يجمع الغنائم من ساحة القتال ويضعها جميعها فى مكان واحد فلما احصيناها وجدناها تربو على العشرين واحدة ، وهنا عرضت لنا صعوبة وهي كيف تحمل هذه الطيور جميعها فاننا ان تركناها تكون صفقة خاسرة . لذلك أشار شارل

الى « بوبى » ليعود الى القصر ويحضر معه خادمين أو ثلاثة وما
كان اسرعه الى فهم المقصود وتسهيلا لمهمته ربطنا فى رقبته ورقة
تشير الى غرضنا

تركنا البجع فى مكانه بعد أن اوثقناه كله بحبل واحد وحولنا
اتجاهنا الى الناحية المضاده وأخذ الطريق تزداد صعوبة لكثرة
الاحراش والكتل الصخرية الضخمة فى تلك الجهة واذ كنا نتقدم
في السير والحديث على ما حولنا يتبعنا من مكان الى آخر هب علينا
نسيم بارد جمدت له شفا هنا فامتعضنا منه جميعا واوجسنا خيفة
انقلاب حالة الجو ونحن فى هذا المنقطع فنشرت هذه الفكرة
سحائب الحزن على وجه لوسى وحاولت ان اسرى عنها قليلا ولكن
الخوف كان قد تملكها ولم يلهنا عن التفكير فى هذه المسألة غير
سماعنا اصوات بعض الحيوانات على قرب منا فعلمنا ان ثوران العاصفة
قد أهاجها من أماكنها فأشرت على رفاقى بالاستعداد لمنازلة
العدو الجديد وبدأنا نسير بحيطة وحذر خوف أن يداهمنا بعض
الحيوانات من حيث لاندري فتكون العاقبة أشد سوءا وحينما
كنا نقترب من احدى الصخور شعرنا بصوت أقدام فتيقنا أنه
لابد أن يكون صوت اقدام حيوان مختبىء الا اننا نظرنا حولنا

فلم نجاشيئا فاهملنا المسألة ، ثم مضينا في مسيرنا ، غير ان لوسي توقفت قليلا لتصلح رباط حذائها الذي انحل وبينما كنت أتحدث مع شارل في أمر هذه الجبال اذ سمعنا خلفنا طلقا ناريا يدوي في الفضاء فتحققنا أنه من بندقة لوسي فاسرعت نحو الدخان المتصاعد من جانب الصخور وما اقتربت منه حتى رأيت فتاة ذاهلة تتقهقر امام حيوان مفترس ضاري تسيل منه الدماء ويتحفز للوثوب على عدوه وقد كشر عن انيابه وأطلق الشرر من عينيه ، وهنا لم اتمهل لحظة بل اسعفته برصاصات بندقتي وحسن الحظ أصابته في رأسه فأضعفت من قواه وجبروته وارتد الى الوراء وكان شارل قد أطلق ... فاجهز عليه بطلقات غدارته واما أنا فعدت الى لوسي التي ملأ الرعب قلبها وما لبثت ان سقطت على الارض خائرة القوى فجلست اليها أدلك لها يديها اللتين تجمدتا تقريبا ولما استعادت رشدها سألتها عن الخبر فقالت

بينما كنت اعالج رباط حذائي واذا بذلك الفهد مقبل علي يريد اغتيالي فما كان مني الا أن أفرغت فيه خرطوشتي بندقتي ولكنهما لم يكفيا للقضاء على هذا الحيوان المتعدي الذي صمم على الفتك بي ولما لم يكن لدي وقت لحشو البندقة بطلقات اخرى فاني أيقنت بالموت

وتقهقرت واردت الفرار الذى لم يكن ليجدينى نفعا بالطبع حتى أتيت الى يا رولاند فكان على يديك نجاتى من هذا الموت المحقق فشكراً لك ياصديقى العزيز فذلك شيء لن أنساه لك طول الحياة»

عفواً يالوسى فانى ما فعلت غير الواجب .

أقبل علينا شارل بعد ان قضى على الفهد وكانت الرياح قد هدأت والجو قد اعتدل فاشار علينا بالذهاب الى مكان المجمع فنستريح هناك الى أن يعود «بوبى» والخادم ولكن عز على ان نترك الفهد فى مكانه ولم نستفد منه بما يساوى جزءا ضئيلا مما حدثنا من العناء فاقترحت أن نسلخ جلده ونقدمه للوسى ليكون موطئا لاقدامها فى غرفة نومها تذكارا لهذا الحادث المروع ، وفى الحال انفذنا الفكرة وانتهينا من عملية السلخ حوالى الساعة الثانية عشرة تماما ثم استأنفنا طريقنا الى المجمع فبلغناه بعد قليل وكان قد وصل فى الوقت نفسه الخادم وبوبى . وآن وقت الغداء فهيأنا الطعام ثم اشتهت انفسنا بعض هذا الطير فأعددنا منه شواء لذيذا وبعد أن انتهينا من الطعام أبقينا معنا احد الخدم وارسلنا رفيقيه مع جلد الفهد وبقية الطير الى القصر ثم اخذتنا سنة من النوم فنمنا قليلا فوق الخضرة واستيقظنا فوجدنا «بوبى» والخادم فى حراستنا

ورأينا قبل أن نعود الى القرية ان نجول جولة قصيرة فوق سفح الجبل لنستنشق نسيم المساء العليل فاشار علينا التابع الذى معنا بالانتقال الي سفح الجبل المجاور الذي يصله بالسفح الذى نحن فوقه جسر صغير من الخشب ، وهو اكثر جمالا وابهى جلالا فتبعنا نصيحة الخادم وكان اجمل ما رايناه ذلك المجرى الذي ينحدر تحت هذا الجسر وقد ازدهت مياهه باللون الذهبي البديع الذى اعاره اياها ضياء الشمس الناريه

لقد مثلت الطبيعة فى هذا المكان بستانا باهرا آله من حسن الذوق وجمال التنسيق ما يحتذى به فلقد بهرتنا تلك المشاهد البديعة التى وجدناها تحتاطنا من كل جانب حتى لقد بدت على وجوهنا أزمة غريبة مختلطة من الاعجاب والدهشة والسرور والغرابة وعز علينا أن نحرم من التمتع بهذا الجمال الفتان فجلسنا برهة نمتع الطرف بما حولنا ويظهر أن الطبيعة حسدتنا وحقدت علينا فأبت الا ان تعكر علينا هدوءنا وتعبث بأوقات هنائنا فثارت علينا ريحا صرصرا عصفت له الزوابع وقصفت الرعود وانقلب الجو ظهرا على عقب وكانت طلائع الظلام قد اقبلت فخفنا ان يمسى بنا الوقت فى هذا الجو الملبد بالغيوم فنضل الطريق او ينالنا أذى ففهمنا بالعودة الى

القرية ولكن السحب لم تمهلنا الا برهة وجيزة ثم سكبت دموعها
مدرارا فاخذنا نعدو في سيرنا لعلنا نقصر من زمن
شدتها وكان يتقدمنا « بوبي » فشارل فلوسي فانا ثم
التابع الذي كان معنا وما بلغنا الجسر حتى كنت تسمع لصوت المرور
فوقه رنينا شجيا كما كنت تسمع لصوت سقوط الامطار على
خشبه أزيزاً غريباً ، ولكن يالالهول فلقد اشتد هذا الرنين وعلا
هذا الازيز عند مرور لوسى من عليه وتبع وطء اقدامها فرقعة
هائلة انخلع لها قلبي وكادت تنتزعه من بين جنبي ، ثم سمعت صراخاً
مؤلماً كان هو صراخها فقد اقتلعت العاصفة الجسر من طرفه
الآخر وصار معلقاً من طرف واحد نخرت من فوقه لوسى
وهوت الى قاع الهوة التي في اسفل الجبل حيث يجرى النهر
الصغير فاشتد انينها وعلا صراخها فخرت في امرى لحظة ما كان
امرها على ، ولكن الكلب الأمين الذى عاد على اثر الصراخ
قد مهد لي سبيل حل تلك العقدة التي كنت اعالجها اذ ذاك فقد
رأيته يلقي بنفسه من اعلى السفح في اتجاه لوسى فتبعته انا ايضاً
وحذوت حذوه فألقيت بنفسى في نفس الاتجاه
القيت بنفسى ولم أكن أدرى ماذا يكون مصيرى ولا أعلم

كيف فعلت ذلك ولكن العاطفة التى كانت تسرى فى قلبى فى
ذلك الحين كانت تدفعنى الى عمل شىء لانقاذ لوسي من مخالب
الهلاك وما كان هذا العمل الا السقوط وراءها فاما نجينا معاً واما
كانت نهايتنا واحدة ، ولكنى مع ذلك كنت ارجح هلاكى قبل
نجاتى وخصوصاً لو صادفنى بعض الصخور التى لامحالة تهشم
عظامى على انه لحسن الحظ سقطنا فى وسط المجرى فوق بعض
الحشائش النابتة فساعدتنى هذه على تخفيف وطأة سقطتى ورغم
ذلك فانه لشدة العلو الذى هبطت منه والذى يقرب من مائة قدم
فانى لاقيت صعوبة هائلة حتي استطعت ان استقيم فى سباحتى
وما كدت ادير رأسى الغاطسة تحت الماء حتى لمحت لوسى تكافح
الامواج المتلاطمة وهي تتخبط بينها والكلب الامين يعاونها على
رفع رأسها فوق سطح الماء فأسرعت فى سباحتى وكانت على بعد
خمسة امتار منى فلحقت بها ومددت نحوها ذراعى ولما رأتنى
هدأت من صراخها ثم ابتسمت ابتسامة فاترة لم تلبث ان تلاشت
بين طيات ما يحوطها من الفزع والهول وبعد نحو عشرة دقائق
كنت وصلت بها الي الشاطىء وبوبى يتبعنا وكذلك نجينا معاً ولكن
الجهد كان قد انهكنا فدارت برأسى الارض واما لوسى فقد غابت

عن الوجود فحاولت افاقتها وباشرت لها عمل تنفس صناعي بقدر ما استطعت حتى اثابت الي رشدها وعندئذ نظرت الي وقالت:

« كم انت تدينني يارولاند ، لقد احييتني مرتين في يوم واحد وما املك انفسي غير حياة واحدة فهما ضحيت فأنى ان استطيع ان اكافئك على ماقدمت الى فلست قائلة لك غير كلمتي الاولى وهي شكرا لك ياصديقي ثم أعترف لك بعد ذلك بعجزي التام

كلا انك تبالغين في قيمة عملي يالوسي ، واني لا استحق كل هذا منك ولا يهمني الا أن اراك سعيدة بحياتك بعيدة عن كل سوء وشر فاذا بلغت هذه الامنية فكفاني ذلك من الدهر نعمة جزيلة

وما بلغت من حديثي الى هذا الحد حتى سمعت شارل يصرخ من أعلى السفح « لوسي - رولاند . . . » فرددت على ندائه أن نجونا معا — نجونا . . نجونا . . .

ودام سقوط الامطار أكثر من ساعة ثم بدأ يخف قليلا قليلا حتى صار رذاذاً خفيفا فأخذت أفكر كيف الطريق الي الصعود الى سفح الجبل وهو أمر عسير علينا جداً في هذا المكان اذ كان الانحدار اقرب الى العمودية منه الى الميل ، لذلك فكرت ان نسير قليلا بجانب شاطىء المجرى لعلنا نجد منحدراً

في الجبل نستطيع الصعود منه . على ان هذه العملية قد تستغرق منا ساعة ومثلها ساعة اخرى حتى نصعد الى سفح الجبل فيكون قد امسى بنا الليل ولبس الافق ثوب الظلام فيتعذر علينا وحدنا الوصول الى القرية . لذلك خطر لي أن أرسل شارل الى القصر ليأتي الينا بنجدة من هناك لنأمن على سلامتنا. وكذلك فعل شارل وأما انا ولوسي فقد أخذنا نسير بجانب المجرى والكلب يتبعنا ببحث عن منفذ لخلاصنا ومضى على مسيرنا أكثر من ثلث ساعة حتى يئسنا من النجاة وأخيراً رأينا السفح قد تحول تجاه الشرق وأخذ يتدرج صاعدا الى أعلى فلمعت في عيوننا أشعة البهجة والفرح ولكن أسقط في ايدينا لما وجدنا اننا قد فقدنا عصينا الحديدية ولما اعيتنا الحيل استعضنا عنها بأغصان بعض الاشجار المتينة النابتة بجوار شاطىء المجرى وبغاية الجهد والمشقة تمكنا من تسلق الجبل والعودة مرة اخرى الى اعلى سفحه حيث جلسنا ننتظر شارل تجاه الجسر المحطم وامامنا الخادم المسكين في السفح الآخر من الجبل المجاور

ولما كان باقياً على عودة شارل اكثر من ساعة وهي مدة طويلة عله وخصوصاً على لوسي فقد بدأت أفكر كيف أمضي معها

هذا الوقت الطويل وكيف أسرى عنها هم مانالنا من العناء واذا بي حائر في تفكيري قالت : انى اشعر بتعب شديد وبى حاجة الى النوم فكانت فكرة النوم أحسن حل راقني فوافقتها فى الحال على ما طلبت ومهدت لها مرقداً فوق الحشائش واستأذنتها ان اجعل ركبتى عتابة وسادة لهاثم اسبلت عينيها وغرقت في سبات عميق

فى تلك الساعة اغمضت جفني انا كذلك وصرت افكر فى اللذة التى انا فيها فها صديقتى لوسي ، التى كنت اعد وجودى قربها حلما من الاحلام اراها بجانبي ورأسها فوق ركبتى وقد سكنت تحت حمايتى أنفاسها تلتقي بأنفاسى ودقات قلبها ترددها دقات قلبي ، وهاهى قد اصبحت تحمل لى فى قلبها اثراً حسناً قلما تبليه الايام وذلك بفضل الاعمال الباهرة التي هيأتها لى الظروف اليوم ، أجل فتلك بشائر الظفر بغرامها وحوزة قلبها

وبينما كنت غارقا فى بحار تصوراتى وخيالى اذ سمعت ضجة اصوات متعددة تتقدم نحونا ويضىء فى أتجاهها نور ضئيل فايقظت لوسى من رقادها وبشرتها بوصول النجدة وقرب السلامة ثم سمعت صوت شارل ينادينى فأجبت نداءه وما كان أشد دهشته عند ما رأينا مرة ثانية فوق السفح وأخذنا نتعانق جميعا بشوق

وسروراوكان من بين القادمين مع شارل ابوه الكونت فالتفت نحوى واغدق على كثيراً من عبارات الحمد والثناء فشكرت له حسن عواطفه وتمنياته .

وأخيراً عدنا نفكر فى أمر التابع الذى كان يرافقنا والذى لا يزال باقياً فى مكانه من سفح الجبل المقابل وبعد تفكير قصير اقترحت أن نقذف اليه عصا متينة يثبتها فى جانب السفح الذى هو فوقه ونلقى اليه بحبل يربطه من طرفه فى العصا المثبتة ثم نركز نحن الطرف الآخر من جهتنا ويتعلق هو بالحبل ويعبر بيديه هذه القنطرة الجديدة وفى الحقيقة لم نجد حلاً أسهل ولا اسرع واحسن من هذا الحل وفى الحال نفذناه ونجحنا فى مهمتنا فحمدنا الله وعدنا جميعا الى القصر وكان الكونت قد اعد لنا سياره في مبدأ الطريق المنتظمة من الجبل فخفف ذلك عنا نصف الذي كنا سنكابده فى عودتنا .

وصلنا الى القصر فرأيت مدام دارتوى تستقبلنا على باب الحديقة ومارأت لوسى حتي ضمتها اليها ثم ادارت وجهها نحوى وقدمت الى مزيد عطفها وثنائها .

وبعد أن وصلنا الى القصر وأبدلنا ملابسنا بغيرها ثم أسترحنا

قليلا بدأ الكونت يستفهم مني عما حدث فأخذت اقص عليه ما جرى وهو يدهش ويعجب المخاطرات الهائلة التي كابدناها في ذلك اليوم ومكثنا كذلك حتي دعانا الخادم الي طعام العشاء ، على أن لوسي اعتذرت عن تناول شيء ما غير قليل من اللبن لانها كانت تشعر بحرارة غير عادية في جسمها فخافت أن يسبب لها الطعام ضررا وقد وافقناها على رأيها ، واشرت عليها بتناول بعض العقاقير الطبية مؤقتا حتى اذا لم يزل اثر هذه الحرارة في الصباح تعرض نفسها اذ ذاك على الطبيب.

لم امكث طويلا بعد تناول العشاء حتى قصدت مرقدي واسلمت نفسي الى سلطان النوم اذ كان عناء اليوم الماضي قد بدأ يحل بجسمي

— ٥ —

في باريس

انقضى الليل وأصبح اليوم التالى فسألت عن لوسى فوجدت أنها ملازمة الفراش وأن الكونت أرسل فى دعوة الطبيب لسبب ارتفاع درجة حرارتها عن أمس فاستأذنت فى الدخول عليها فأجابت رغبتى فاستفسرتها عن حالتها وتمنيت لها خيراً ثم أردت الخروج فسألتنى أن أجلس معها أحدثها قليلا لانها تشعر بالوحدة ، ولا أكذبك القول أيها القارىء الكريم انى أحسست وقتئذ كأن تياراً كهربائياً قد سرى في جسدى ، فلقد رأيت فى عينيها رموزاً لم أكن أراها من قبل فها هى تطلب الى البقاء معها وهاهي تشعر بحاجتها الى حديثي . . لقد كان شعورى اذ ذاك مختلطا من السرور والالم والفرح والدهشة فكان شعوراً غريبا لا أدرى كيف أصوره .

جلست الى مقعد بجانب فراشها وقد رأيت من الاوفق

أولا أن أشد من عزيمتها وان أهون عليها أمر مرضها ثم انتقلنا الى الحديث فى بعض الشئون العامة وفى أثناء ذلك حضر الطبيب وبعد ان فحصها جيداً رأيت على وجهه علامة الاسى والحيرة ثم تقدم نحو الباب وخرج من الغرفة فتبعته أنا والكونت وشارل ولما وقفنا قال :

انها مصابة بحمى أثر برد شديد تعرضت اليه وهذا النوع من الحمى يطول أجله غالباً ويحتاج الى عناية تامة ولذا أشير عليكم بنقلها اليوم قبل ان يشتد بها المرض الى مستشفى باريس حيث به من الوقاية والاعتناء ما يكفل للمريض سلامته من أخطار الأعراض

عندئذ قرر الكونت الانتقال الى باريس فى الحال ولم تمض ثلاث ساعات حتى كنا جميعا هناك بالمستشفى فقضينا برهة مع لوسى ثم استودعناها رعاية الله وقبل ان أترك الغرفة وكنت آخر من خرج منها التفت الى لوسى وأعدت عليها السلام فابتسمت ثم قالت :

لاتنسى يا رولاند زيارتى فسيكون فيها تخفيف لكثير من آلامى فانحنيت لها وأبديت عظيم تمنياتى فى شفائها القريب ولم

أستطع ان أطيل الوقوف بعد لان الدموع كانت تترقرق بين اجفني فودعتها وخرجت بسرعة والعبرات تسيل من عيني والقلب يشتعل احتراقا .

آه ، ما كنت أتألم وانما كنت أحب وكذلك فالحب والالم شقيقان بل هما توأمان متشابهان أينما وجد الأول وجد الثاني الاول منبع اللذة والثاني منبع الرحمة فاذا امتزجا هذان العنصران كونا رحيق العظمة وسمو العواطف ونبلها ، وقد يكون الألم أصل الحب لأنك تتألم فترحم فتحب او قد يكون الحب أصل الألم لأنك تحب فتخلص فتتألم ، كذلك كان الحب والالم شيئين مفرغين في بعضهما فلا تعرف أيهما الاصل وأيهما الفرع بل أنك لا تستطيع ان تفصل بينهما فهما شيئان منسكبان في بعضهما ممزوجان مزج الماء بالخمر .

بعد ان خرجت من المستشفى عدت الى منزلي بعد ان تغيبت عنه بضعة أيام وبعد ان انقضت عطلة عيد الميلاد استأنفت دراستي في الجامعة وكنت أزور لوسى في المستشفى ثلاث او أربع مرات في الاسبوع ولقد اشتد بها المرض القتال في ايامها الاخيرة حتى لقد تجاهلت كل أهلها وأصدقائها فكنت اذا رأيتها

لا تتميزها من بين جسمها الناحل وغصنها الذابل فكان ضعفها هذا وسوء صحتها مصدراً لأعظم آلامي فلم يكن يمضي علي يوم الا وأبكي من أجلها بكاء مراً الى ان تمصاني الدموع فأسكن الى فراشي واستسلم الى النوم

مضى على لوسى فى المستشفى ثلاثة شهور طويلة حتى اعياها الضنى وهدها السقم ثم أمدها الله بروح من عنده فبدأت تتماثل الى الشفاء يوماً بعد يوم وقد زرتها مرة فقالت :

الا ترانى الآن أحسن من ذى قبل ؟

حقاً ، هذا صحيح .

نعم يارولاند ، لقد من الله علي بالشفاء بعد هذا العناء الطويل ولذا فقد نذرت ان أتطوع فى خدمة مرضى هذا المستشفى شهراً كاملا بعد تمام شفائى مباشرة قرباناً لله وحسنة عند المولى .

ما أطيب قلبك يالوسى وما أقربك الى عمل الاحسان والخير ، ولكن ألا ترين ان تلك الخدمة منهكة للقوى وخصوصاً بعد مرض طويل ؟

قد يكون ذلك صحيحاً يا رولاند ولكنى سأتحمله فوق ماتحملت لان الاطباء يشيرون علي بالسفر الى بلاد الشرق لأقضى

هنالك مدة سأمضى معظمها فى مصر ترويحاً للنفس وتجديداً لقواى وقد يمتد غيابى الى عام كامل او أكثر ولذلك فانى برأ بوعدى قد صممت اخيراً على ايفاء نذرى بعد شفائي مباشرة :

هذا رأي جميل — ولم ألفظ غير هذه العبارة لان أفكارى كانت تشتتت منذ اللحظة التي علمت فيها بعزمها على السفر وغيابها عاماً فى بلاد الشرق حيث لا سبيل الى رؤياها طول هذا العهد المديد، لقد شغلتني هذه الفكرة واخذت أصور فى الآلام التى سأعانيها من وراء غيابها وانا الذى لم أكن أستطيع الصبر يومين كاملين بدون زيارتها — حقاً لقد صعقت عند سماعى هذا الخبر ولكنى رأيت من اللياقة ان أرجىء التفكير فى هذا الامر مؤقتاً ثم استأنفت حديثي معها برهة واستأذنتها وخرجت وانا فى حالة ارتباك شديد . . .

٦

فى الشرق

انقضت الايام وحان موعد رحيل لوسى الى بلاد الشرق وقد وصلتنى منها بطاقة تنبئنى فيها بأن موعد سفرها سيكون في يوم ١٥ من الشهر الجارى فوضعت البطاقة امامى واخذت أفكر ماذا يكون مصير حبي لها بعد هذا الغياب الطويل .

(لقد صرت أحبها حباً هو فى الحقيقة لغز من ألغاز حياتى ما كنت اخافها ولا أفزع من رؤياها ولكنى ما رأيتها الا وارتعدت وخفق قلبي خفقاناً سريعاً ، وما لمست يدها الا وشعرت كأن سيالا كهربائياً قد سرى في عروقى ، لا أدري كيف ذلك ولكنى اعلم انه هو الحب الكمين فى فؤادى مصدر كل هذه الاعاجيب) ومع ذلك فلم تتعد علاقتى بها طول هذه المدة دور الصداقة والود ولم احاول ان أقول لها فى يوم من الايام انى أحبها حباً هو غير صداقتنا ، فى حين انى كنت اقرأ فى عينيها وفى

حركاتها نفس ما اقرأه في نفسي وأشعر به ، وعلى العموم فسواء كنت مصيباً في نظري او مخطئاً فاني احببتها حباً لا حب فوقه فهي املي من الحياة وهي رجائي في هذا العالم وهي التي من اجلها خاطرت مراراً بحياتي :

فماذا يمنعني اذن من مفاتحتها في امر غرامي ؟ وماذا يؤخرني عن بثها شكاة قلبي ؟

هل اقف جامداً في مكاني ؟

هل تضعف شجاعتي امام خطابي لها في امر غرامي بها وانا الذي قذفت بنفسي من اعلى الجبل مخاطراً بحياتي من اجلها ؟ !

كلا ، يجب ان اتقدم اليها بقدم ثابت ونفس هادئة وا كشف لها عن غطاء ذلك القلب الذي اقام فيه الحب هيكلا ومعبدا .

وبينما كانت تساورني هذه الافكار رفعت بصري نحو الحائط فالتقى بصورة ابي الراحل فارتددت الى الوراء وتمتمت قائلا .

لا ، لا ، لا

اقد تذكرت أني لازلت فتى تعيسا شقيا ، لا املك شيئا من متاع هذا العالم غير نفسي فحسب ، ولقد فقدت أبي من قبل ففقدت معه كل معين لدي في هذه الحياة وخرجت من بين يدي

الدهر شابا منكوبا معدما ، أقف فأندب سوء حظي شاكيا متألما من حيث لا تنفع الشكوى ولا يجدى الندم ، لا عزاء لي غير الأمل في وجه الله ، ولا سلوى لي عن آلام نفسي غير سهادي بالغرام ، كيف أصل حياة فتاة سعيدة بين ابويها بحياة فتى مثلي لا يملك غير عبرة ساخنة يشيع بها الماضي الهنيء ودمعة حارة يسكبها أسى وحسرة على تلك السعادة البائدة التي كلما هبت على ريحها ومرت بي ذكراها أثارت في قلبي لوعة لن تطفيء جذوتها المتقدة سيول العبرات والدموع ولكن سوف تكون عليها بردا وسلاما تلك القطرة التي لا يتلوها الا اغماض الجفون الى الابد

هل ابثها غرامي ووجدي ثم القيها بين أحضان الحب وأنا لا أزال أجهل مستقبلي ولا ادرى هل به سعادة أو شقاء ، هل ادعوها الى مناصفة الكأس وأنا لا ازال لا استطيع أن أضمن كسب ما يكفل لنا هناءة حياة زوجية سعيدة ؟

وأنه لجرم ، أنه جنون وطيش

كلا كلا لا يغتفر بل وأثم عذابه مر يبقي لي داء عضالا على افناء حياتي ان أنا اوقعت فتاتي المحبوبة في شراك غرامي

ثم سببت لها شقاء وتعاسة أبدية بعدمي وفقري .

انما حقيقة سنسعد بحبنا ونهنأ بغرامنا ولكن سنصير شقيين أيضا بقلة مالنا وهذا ما يوجب ايلامنا وحزننا

أني وأن تحملت ذلك لانه امر طالما ذقته مرارا ولكني لا أطيقه ولا أرتضيه لحبيبتي ، بل أني لا أقوي على رؤيا لوسي تتألم وتحزن وهى بجانبي ثم أشعر في الوقت نفسه أني أنا الذى سببت لها هذه الآلام والاحزان ! انها لفظاعة ووحشية ، هل اختطفها من بين احضان سعادة أبويها واقذفها بين مهاوى العوز والفقر لأنى أحبها وقلبي دنف بها ؟ لا ، أنها القسوة ، أنه الظلم أنه الحب يعمى ويصم ، فالله احمدك وأشكرك أن ارشدتنى الى الطريق الصواب وأني اسألك يا ألهى أن تلهمني الصبر وتخفف عنى الألم

وما دام لم يعد أمامي من دراستى غير اليسير فلأصبر تلك البقية أيضا ولأرى ماذا يكون المآل وكيف يكون المستقبل حتى اذا أمنت أرزاء الشقاء وعوادى الدهر تقدمت بنفس مطمئنة وقلب ثابت وقلت غير متردد ولا خائف أني أحبك يالوسى ، أنى قد اوقفت عليك حياتى فبيديك شقائى أو نعيمي .

طويت بطاقة لوسى ولما لم يكن يبقى عن موعد سفرها غير يوم واحد فأنى قد عزمت على زيارتها فى نفس اليوم ثم أودعها اخيرا في ساعة رحيلها فى المحطة ، وفى الساعة الخامسة ركبت عربة من منزلى الى قصر السكونت وارسلت بطاقتى اليها فاستقبلتنى فى فناء الحديقة فحييتها ثم جلسنا الى مقعد وأخذنا نتحادث عن الشرق وأهله ومصر وعجائبها ، اهرامها وآثارها ، مجدها السالف وعزها التالد ، كنت احدثها وكان قلبي مشطورا الى شطرين بين عامل اسى وعامل سرور ، الاول لفراقها والثانى لرؤياي لها .

استمرت تقص على برنامج رحلتها وانا صامت صاغ لا احول بصرى عنها وقد خيل الى ان اركع تحت قدميها اناجيها بما يكنه لها قلبي ويكتمه فؤادى ولكنى تذكرت ذلك العهد الذى قطعته على نفسى فى الصباح فتجلدت وتناسيت آلام نفسى حتى انصرفت من عندها على ان اراها غدا في المحطة ، وعند منتصف الرابعة تماما من اليوم التالى كنت اراها تلوح بمنديلها الابيض من نافذة القاطرة المبتعدة حتى توارت عن الانظار فشيعتها بدمعة حارة سقطت على خدى تتبعها حرة مرة كادت تفتت كبدى ...

٧

المناجاة

عدت من المحطة وقد ظننت أنى تزودت من رؤيا لوسى بمؤونة حسبتها تكفينى أياما طويلة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، ولكن ما عتمت أن فرغت جعبة زادى وصارت بذور الشوق والوجد تنمو سريعا فى قلبى يوما بعد يوم فأصبحت أفكر في ذلك المستقبل الطويل ، فى الشهور المديدة التى قد تمضى ولا استطيع رؤيا صديقتى فيها !

لقد ساءت حالى وأخذ التفكير منى مأخذه ونال منى مناله لقد تألمت وتألمت كثيرا جدا .

// آه ما أظلمك أيها الحب فكما بك من حلاوة فأن فيك مرارة وكما تمنح من سعادة فأنك كذلك تبلى بالشقاء :

لقد أصبحت الساعات اطول منها فى كل يوم كما اصبحت لا تمر دقيقة حتى أهتف باسمها فى قلبى وأردده بين حنايا فؤادي

ترديدا محزنا مؤثرا ولا يحل المساء حتى أناجيها نجاه أخال أن النسيم يتلوه معي والرياح تشدوه مثلي حتى اذا ما أنهكني الجهد آويت الى غرفتي منفرداً حزينا .

آه ، أين انت يالوسي الآن ؟ هل أنت تسيري الهوينا بين الرياض والحدائق تخزى الورد بحمرة خديك وتخجلي النرجس بسواد عينيك أم هل أنت تقتطفي الازهار تلثميها بثغرك الجميل وتلقنيها لغة غرامك او تستقي منها رحيق الحب ؟:

أين أنت الآن هل أنت سائرة على تلك الشواطىء الضحله تنظري الامواج المائية وهي تشمخ بعظمتها عجبا وقوة حتى اذا رأتك أخذت تتهادى نحوك وتتقدم اليك الى أن تتلاشى عند قدميك ؟ أم هل أنت متكئة الى وسائد الرمال الذهبية مسترسلة في عالم الخيال تشيدي قصور السعادة والهناء ؟ ام هل أنت تنظرين الى الشمس الغاربه تحييها من وجنتيك بلونها الأحمر الفتان الذي يكسبها ثوب البهاء والجمال ترنين الى القمر تزوديه بانوارك الساطعة وأضوائك المنيرة ؟ أم هل أنت تسمعين نغمات الطيور المغردة وهي تشدو بجمالك وتتغنى بحسنك :

أين انت ياحبيبتي الآن ؟ هل أنت بين فراشك حيث اقمت للطهر

معبداً وللعفاف هيكلا أوقفت عليه روحي وحياتي . أم هل انت بين كتبك تستزيدين علما وحكمة وانت في فيض من الحكمة الالهية ؟ : . .

هل تذكرين ساعات قضيناها معا وقد عقد الحب الكامن شفاهنا فأنسانا كل شيء حتى الكلام فكانت نظراتنا وابتساماتنا هي حديثنا الناطق الشهيد على اقوال قلوبنا وافئدتنا، هل تذكرين تلك الايام يالوسي ام هل انستك هيبة النيل وعظمة مصر الخالدة كل شيء ؟ :

اين انت يالوسي اتراك ساهرة في سكينة الليل ترسلين انفاسك مع النسيم المايل ليعطر بها ارجاء الجو ام تراك تتأملين رسم فتاك على صفحة الخيال ؟ ذاك رسم لم يعد كما تعهدين او تعرفين فلقد انحلته آلام الوجد والغرام وسحقه عذاب البعد والفراق .

هل تسمعين يالوسي صوتي الضعيف المتألم الذي ارسله اليك على جناح الاثير ؟ هل تقرأين شكواي التي اخطها على وجه البدر في كل مساء وعلى جبين الشمس في كل صباح ؟ اوهل تسمعين اصوات البكاء والنواح وهي ترددها الطيور والعصافير : او هل رأيت دموعي المتشععة بخاراً المتكاثفة سحبا في علياء السماء وهي

تخفى وجه الشمس عن احياء هذا الكون :

ايه حبيبتي : ألست سامعة من وراء هذه المسافات الشاسعة التي تفرق بيننا ندائى ونحيبى ، وناظرة ضعفي وسقمي : او ليس من تموجات هذا الاثير سلكا كهربائيا ينقل اليك مواجيي واحزانى

اين انت ياحياتى الآن : ابتهجى وانتعشى فأنتعش لسعادتك واحيا لاجلك ، صلى من اجلى فأبرأ من اسقامي ، ابتسمى ثم ارسلى قبلة حارة على جناح النسيم فتملأ قلبي بحرارة الحب وتبعث فىّ بقوة الغرام ٠

آه اين اراك واجدك الآن ياحياتى

اه ما اقواك ايها الحب وما اضعفنى

***

ذلك بعض النجاء الذى كنت اردده فى كثير من اوقاتى وما كانت كل كلمة منه غير سهم ينفذ الى سويداء قلبي فيثير لواعجه ويدمى اشجانه فلم يهنأ لي عيش طول هذا العهد فصرت فريسة لآلام هواجسى فى اليقظة وغنم لمباغتات احلامى فى المنام ، ما كان يهدأ لى مضجع ولا فراش أرق فى ساعات ليلى تفزعنى تلك الانتفاضات

المروعة التي استفيق منها فأجدني وحيدا بين جدران غرفتي جالسا بين فراشي افكاري موجعة وقلبي سقيم ونفسي منفردة وعلى هذا المنوال أستمر في الحال لا اجد لي من عزاء اوسلوى غير الهموم والاحزان الى ان اقبلت الايام وعاد .....

اراك تواقا ايها القارىء الكريم الى ان تسألني عن حياتي في تلك الفترة التي قضيتها لوسي بعيدة عني ، ولكن عذراً جميلا ان انا لم اكتب غير سطور قليلة لان صحيفة حياتي اذ ذاك هي صحيفة مؤلمة هي صورة جلية لحياة شخص بائس تعيس ، فلا ترى بين سطورها غير عبارات الاسى والحسرات ، هي صورة لحياة شخص اعتزل العالم فاصبح لا يرى فيه غير نفسه ولا يعرف غير شخصه تجاهل الناس جميعهم وانكرهم ولم يتعرف بواحد منهم غير شخص واحد فقط ، الا وهو عامل البريد ، رسول الغرام وحامل لواء السلام .

ولكن ماذا كان بتلك الرسائل التي كان يحملها ؟ انه لم يكن يميزها عن سواها غير انها كانت مسطورة بأنامل لوسي ومكتوبة بخط يدها هي رسائل صديقة لصديقها او صديق لصديقته ، ليس فيها غير اخبار مصر ووصف عجائبها وصحائف من تاريخها ، فيها

عجيب لنيلها وتشويق لرؤيا آثارها ، ذلك كل مابها وكله نعرفه بين الكتب وفى التاريخ : تلك هي رسائلنا فى ذلك الحين وهى بعيدة عن عالم الغرام وسماء الحب فهى رسائل جافة بالنسبة لقلب ملتهب تحمى فيه حرارة الوجد

سافرت لوسى ولم تكن تدرى اى نار هي التي تتقد بفؤادى من جراء فراقها ! لقد احببتها حباً فى درجة العبادة ، حباً دونه الموت ومع ذلك فانى حتى تلك الساعة لم احدثها او أكتب اليها ولم تحدثنى او تكتب الى الا كما يتحدث الصديق لصديقه او يكتب الصاحب لصاحبه

سافرت لوسى الى مصر وفى القلب أنة وبالعين دمعة ، أسبلتها ساعة ان ألقيت عليها آخر نظرة والقطار يبتعد عن باريس نحو الجنوب

هل أراها مرة اخري ؟ وهل ألتقى بها بعد اليوم ؟

سؤال هو فى الحقيقة جوابه في عالم الغيب !

على ان الايام شاءت ان تجيبنى ولكن بعد مرور شهور طويلة فقد عادت لوسى الى الوطن المحبوب وها انا اراها بعد غياب اكثر من عام ونصف !!

عادت لوسى فزالت برؤياها آلامى ونسيت عنائي!

عادت لوسى فها هو قلبي يستقبلها بالبهجة والسرور !

عادت لوسى وهاهى نفسى تحدثنى ان ابدأ معها حياة جديدة !

عادت لوسى فلترى ما دبرته الحوادث بيننا فى الايام المقبلة ...



٨

النجاح

عدت الى منزلي في يوم من أواخر شهر اكتوبر وانا ممتلئ سرورا وارتياحا فلقد انتهيت من تأدية امتحاني النهائي واصبح طريقي لابواب الحياة العملية قاب قوسين أو أدنى فجلست الى مقعد في الشرفة المطلة من حجرة نومي وكان الليل قد أرخى ثوبه الأسود الذي أخذ يبيض قليلا قليلا بين ضياء الهلال المشرق فأثار في نفسي هدوء الليل المهيب ذكرى الماضي فأخذت اراجع صفحاته وأعود بحوادثه الى سالف العهد فذكرت أيام طفولتي وكيف قطعت المرحلة الأولى من دراستي بمدرستها الصغيرة ثم كيف انتقلت الى جامعة باريس وكيف زرت اسرة الكونت داروتوى لاول مرة وكيف رافقتهم الى قرية قارن في عيد الميلاد وهنا ذكرت حوادث رحلتنا الجبلية وكيف مرضت بعدها لوسى بتلك الحمى القتالة ثم انها قضت عاما بعد شفائها بمصر وكيف تألمت في غيابها

تلك الآلام المرة وكيف اعتزمت مرارا مفاتحتها بسر قلبي وكيف
انى ترددت ولم اتخذ من قوة الغرام مشجعا لى وعونا على فتح
قلبها وحوزة فؤادها — ثم ذكرت كيف أنى صبرت على آلام الحب
طول هذه السنين الطويلة حتى بلغت امنيتى من الحياة الدراسية
ولم أعدأهم للعوز أو الفقر فلقد اتممت دراستى وثقتى في النجاح عظيمة
فأن أسعدنى الحظ فأني سأجد اسمي بين اسماء الفائزين على صفحات
الجرائد فى خلال أيام قلائل ٠ وبينما أنا كذلك أعود مع الماضى
واطارد المستقبل غارق بين احلامي اللذيذة سابح مع أمانى الحسان
غلبنى النوم فالتزمت فراشى وشملنى ثبات عميق

فى صباح اليوم الثالث لتلك الليلة استيقظت من نومى وبعد
أن تناولت طعام الافطار وجلست اتناول فنجانا من القهوة اذ اقبل
الخادم والقى بين يدى صحف الصباح ومن بينها صحيفة الطان وهى
التى تعودت أن أقرأها اولا وبينما كنت اقلب صفحاتها واذا بعنوان
ضخم فى العمود الثالث من الصحيفة الثانية بهر بصرى فوقفت
عنده واذا به :—

نجاح باهر

أعلنت أمس جامعة باريس اسماء الطلبة الفائزين في الدكتوراه لعلوم الحقوق والعلوم الاقتصادية فكان من بينهم نابغة كبير حاز لأول مرة درجات لم يسبق أن نالها مثله في السنين السابقة فاستحق أعجاب أساتذته وقد حاز شرف الاولية على أخوانه ونال مدالية الشرف الذهبية كما استحق أيضا مبلغ الثلاثة آلاف فرنك التي كان قدمها (دوق بريتاني) لتمنحها الجامعة لمن ينال ارفع الدرجات فى هذا الامتحان وهذا الطالب هو المسيو: (رولاند ديمون) فنهنئه بفوزه الباهر كما نهنئ فرنسا بفخر ابنائها. وقد تلا المسيو رولاند في فوزه الطلبة الآتية اسماءهم وهم حسب ترتيب درجاتهم حضرات المسيو ..... الخ هذا وستقام حفلة توزيع الشهادات فى الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين ١٢ نوفبر

***

لم يكد يقع نظرى على هذا الخبر السار حتى صحت من اعماق

قلبي (شكراً لك يا الهي لقد تم فوزي وتحققت آمالي) وأني لا أخالك أيها القارئ الكريم الا مقدراً ما اصابني من السرور واذ ذاك

لم افرغ من تلاوة الصحيفة حتى اسرعت نحو مكتبي ثم امسكت بقلمي ولكني للغرابة نسيت الغرض الذي عزمت على الكتابة من اجله ثم تذكرت بعد برهة اني كنت انوي كتابة دعوة لصديقتي (لوسي) لتتناول معي الشاي بمنزلي على اني استحسنت ان تكون هذه الدعوة بعد مضي حفلة المدرسة أي بعد يوم ١٢ من الشهر القادم

لذلك القيت القلم من بين اصابعي وفي صباح يوم ١٢ نوفمبر قبل ان اقصد دار الجامعة كتبت اليها الدعوة الآتية : —

عزيزتي لوسي .

اني سأكون سعيداً جداً ان اراك غداً في منزلي تتناولين معي الشاي في الساعة الخامسة مساء اذ لدي حديث هام أحب ان القيه على مسامعك . واني انتهز هذه الفرصة فابشرك بفوزي في امتحان الدكتوراه كما اعلنت صحيفة الطان ذلك الاسبوع الماضي ... الى الملتقي ؟

المخلص

رولاند

والحقيقة انى عزمت ان أحدثها عن حبي لها فانى لم أصبح أطيق على كتمانه صبراً بعد ، ولقد تعمدت ان أفوه عن نجاحى بين سطور كتابي لثقتي بأنه سيكون له أثر حسن فى نفسها ويرفع من شأنى فى عينها .

أخذت أفكر بعد ذلك كيف تكون مقابلتى للوسى ، وكيف أفاتحها حديثى فتواردت على ذهنى أفكار عديدة ولما حرت بينها وكلت امرى اخيراً للظروف وطرحت التفكير فى هذا الأمر جانباً .

توجهت الى دار الجامعة حيث اقيمت حفلة توزيع الشهادات فى منتصف الساعة العاشرة وقد افتتحها مدير الجامعة وألقى خطابا شيقاً نالنى فيه نصيب وافر من الثناء ، ثم هنأنى المدير وألبسنى مدالية الشرف الذهبية كما سلمنى أيضاً حوالة مالية باسمى على بنك « الكريدى ليونيه » بمبلغ ثلاثة آلاف فرنك ، وهنا وقفت انا ايضاً وشكرت المدير وحييت اساتذة الجامعة وطلبتها كما شكرت لدوق بريتانى هبته لتشجيع المجدين ، وبعدان وزعت الشهادات جميعاً انتهت الحفلة فى منتصف الساعة الثانية عشر

فى اليوم التالى قصدت المصرف فصرفت منه المبلغ وبينما

كنت سائراً في طريق عرضت لي فكرة استحسنتها جداً وهى ان أقصد في الحال محل تجار الجواهر وأشترى منه هدية ثمينة أقدمها الى « لوسى » عند زيارتها لى اليوم بصفة تذكار لذلك اليوم او التاريخ الذى سيكون مشهوداً في ايام حياتنا .

لذلك أسرعت وركبت سيارة أوصلتنى الى محل جواهر مشهور كنت أعرفه من قبل بشارع دى بيرون . فانتقيت منه سواراً جميلا مرصعاً بالماس والياقوت أعجبنى شكله وكان ثمنه ستمائة وخمسين فرنكا فدفعتها وعدت الى منزلى في منتصف الرابعة في انتظار حضور لوسى حيث جلست الى كرسى كبير « فوتيل » وأمسكت بسيجارة من سجاير هافانا وأخذت أدخن وقد تركت لنفسى عنان التفكير في أمر استقبال صديقتى وكيفية مصارحتها بغرامي بها . . . ولقد شعرت في بادىء الامر بضعفى امام تنفيذ هذه المهمة وشعرت بروح التردد تتمشى فى نفسى حتى لقد فكرت فى أن اكتب لها رسالة أودع فيها كل ما في قلبي من الحب والوجد حتي اذا ما حضرت عندى قدمتها اليها فتكفينى مؤونة مشافهتها في هذا الحديث ولكنى وجدت أخيراً ان هذا الرأى سخيف ويدل على ضعف العزيمة والارادة

فطرحته من مخيلتي نهائيا وعزمت عزماً أكيداً على خطابها فى الغد

مكثت أدخن مدة واذا بالخادم قادم نحوى ينبئنى بوصول مدموازيل « لوسي » فأسرعت اليها وقابلتها عند باب غرفة الاستقبال فانحنيت وحييتها وقد بادرتني بعبارات التهنئة على فوزى فى امتحان الدكتوراه وكانت علائم السرور بادية على محياها ،

انتقلنا من غرفة الاستقبال الي الشرفة البحرية من المنزل حيث كان أعد لنا الخادم مائدة الشاي وكانت تطل على منتزه جميل يجرى فيه جدول فضي فكان المنظر ساراً مبهجاً .

أخذنا نتسامر فى الشئون العامة هنيهة لاحظت فى خلالها ان لوسى كانت شاردة الفكر وأنه لابد وأن يكون هناك ما يهمها أو يشغلها على انى أهملت سؤالها عما تعانيه من الافكار خوف أن تتألم وكذلك استمرينا فى احاديثنا العامة على ان شعوراً داخلياً كان ينبئنى أنه الغرام الذى تعانى كتمه وهو الذى يلمع فى عينيها هو الذي شرد بافكارها فتغفاءات خيراً ، ولم تمض بنا نحو نصف ساعة حتى كنا فرغنا من تناول الشاي ثم عدنا الى مكاننا الاول من غرفة الاستقبال حيث رأيت صديقتى قد أخرجت من

حقيبتها الصغيرة علبة من القطيفة الحمراء ففتحتها وقدمتها الي وقالت :

هذا الدبوس أقدمه اليك كهدية تذكاراً لفوزك الباهر الذى كان له أوقع أثر من نفسى ولذلك فانى قد حفظت ورقة دعوتك اليوم ضمن أوراقي الخاصة تذكاراً لهذا الخبر السار ، وهنا امتلأت نفسى بشراً وسروراً وتقبلت منها الدبوس شاكراً ممنوناً وكان ذهبياً به فص من الياقوت الاحمر على شكل زهرة جميلة والحقيقة انه كان ذا رسم بديع اجتذبنى اليه فتأملت فيه ملياً فاذا هو منقوش عليه كلمة « الحب l'amour » وهى تتخلل أغصان الزهرة فابتسمت وقلت :

هذه بشرى ابتهج لها قلبي

ماذا ؟

انه مكتوب على هذا الدبوس كلمة الحب وهذا الاختيار منك دليل على أنك صديقة مخلصة لى !

هو كذلك .

صديقة ومحبة أيضاً ؟

فسكتت وقد علا وجهها حمرة الخجل فأكسبتها جمالا فتاناً

وأرخت طرفها وعلى شفتيها ابتسامة حلوة لذيذة.

وهنا لم أتمالك عواطفي فمددت يدي وامسكتها من اناملها الوردية ثم قلت لها بصوت متهدج خافت:

انى أحبك يالوسى، بل أعبدك فلقد اخترق سهم جمالك قلبي منذ الصغر فنما ممتزجا بغرامك دنفا بك، انى ماكنت أوثر الحياة على الموت هذا العهد الطويل الا من من اجلك، انك أنت مالكة قيادى وسالبة فؤادى بل أنت حياتي وفيك مماتى فهل أنت كذلك يالوسى تحبيني وهل يسعدنى الحظ بهذا النعيم الابدى!

سكت وسكتت الفتاة هنيهة ثم قالت:

«انى أحبك يارولاند ايضا بل أنى افضلك في الحب»

ثم تملكنا سكون عميق وقد مكثنا على هذه الحال ساعة صامتين قانعين كل القنوع بنظراتنا التى لم يحولها أحدنا عن الآخر، سعيدين كل السعادة اذ وجد كل منا الآخر في النهاية

بعد برهة قمت من مجلسى وعدت ومعى السوار الذى أعتزمت اهداءه لها فقدمته اليها وقلت وهذا تذكارى لك لليوم

الذى فزت فيه بأكبر فوز فى حياتى ألا وهو احراز قلبك الطاهر فابتسمت وتناولته منى وهي تردد عبارات الشكر ولذة الغرام تظلل صفحة وجهها فسالت من عينيها قطرة دمع حارة عندها ذرفت عينى مثلها فتأثرت تأثرا شديدا وانحنيت نحوها فقبلتها قبلة حارة كانت هى اول زهرة من زهرات غرامنا !!؟

آه ، القبلة ما احلاها ، انها تلك الأنة الخفيفة التى تسمعها عند تلاقى الشفاه فتطرق أبواب القلوب حيث تهتز لها اهتزازا هى قطرة عذبة تحيي الأفئدة ويوقظ سقوطها المهج ، هى طريق عروج الارواح الى عالم الملائكة والوحي ، هى تاج الغرام فوق رءوس المحبين ، بل هي الطريق المختصر لمناجاة النفوس والدليل الساطع على اخلاص القلوب . .

حقاً ما كان أسعدها قبلة ثملت فيها بنشوة الغرام لحظة ثم التفت وقلت

أرأيت يالوسى كيف ان دمعينا قد التقى معاً . ذلك فأل حسن على اننا سنتحد معاً يوماً ما اتحادا أبدياً !

وبينما كانت الدقائق الحلوة تمر كالبرق ساد بيننا سكون آخر عميق بحيث كنا نسمع في خلاله دقات قلبينا ، اخيراً تحولت

اليها ونظرت الى عينيها اللتين كانتا تلمعان بضياء الغرام فى حين ان صارت يديها بين يدى حارة فجأة وأخذ نبضها يضرب بشدة

خاطبتها بصوت متقطع ولكن بسرعة

لوسى : انى أحبك فوق كل شيء كما تعلمين : وانك تحبينني كذلك وهذه حالتنا منذ البدء كما يخيل الى ايضا انى أعلم ذلك ، ولعمري ما فائدة الكلمات اذا كان بيننا ما هو أقوى من الكلام وأبقى منه : انك وأيم الحق لى كما انا لك واذا كان الامر كذلك فانى لا استطيع . .

فقاطعتنى بحالة مؤثرة قائلة :

انى احبك ياورولاند . آه انى اجد هذه الكلمة مبتذلة قديمة اريد لو استطعت ان اجد كلمة اخرى تعبر عما يخالج ضميرى نحوك ، ولكن اذا كان لا يوجد غير هذه الكلمة فثق ياورولاند انى احبك حبا دونه الموت فتأكد انى لك وانى سأحيا لك واعيش من اجلك وحدك . وهذا عهد على لك واشهد الله والملائكة عليه ثق انى احبك . احبك ياورولاند حبا لم تشعر به امرأة من نحوك ولن يشعر به أحد . آواه ليتنى أجد كلمات او أفعل شيئا ابرهن به على

اخلاصى لك وغرامى بك . وبينما كانت تتكلم سمعت ساعة الحائط تدق السابعة فهمت بالانصراف وهى تقول كنت اود ان أمضى معك وقتا أطول لولا ان والدى فى انتظارى لمرافقته الى مسرح التمثيل . ولكن ثق انى سأكون لك دائما . فشيعتها بنظرة ملؤها السرور والالم وكذلك تصلبت عينى فى أثرها حتى توارت عن بصرى ...

١٠

السعادة

مكثت برهة مكانى بعد ما خرجت لوسى وأنا لا أدرى أين أنا لأنى كنت انتقلت الى عالم آخر هو عالم السعادة والغرام ؟

السعادة ؟ هى اسم لمسمى لا نستطيع وصفه أو تعيينه فهى ليست بشىء مادى ملموس يمكن أن نراه أو نمسه ، ولكنها هى سر خفى بل شعور ليس له حد ، وهي كائن سماوى لا يتيسر لنا وصفه أو تصويره فهى اللذة وهي العناد وهى الحزن وهي الأسى وهي كل شىء . . . ؟!

معانى السعادة متضاربة مختلفة ومع ضعفى عن تحديدها فأنى أستطيع أن أقول أنى كنت أشعر بأنى سعيد ، سعيد جداً بل أسعد مخلوق فى العالم فى تلك الساعة ، لا أدرى كيف ذلك وقلبى كان يلتهب حقداً على الزمن الذى مضى سريعا وفؤادى كان يتألم ألماً شديداً لان الفرصة التى سنحت له فيها مناجاة لوسى لم تطل أكثر

من ساعة قصيرة . . كيف أكون متألماً وأكون سعيداً في وقت واحد؟ ذلك ما يجعلني أرى في السعادة معنى لا يدرك وسراً بعيد المنال، أجل ولكني كنت سعيداً لأني فزت نهائياً بالقلب الذي طالما تاقت الى مناجاته نفسي من زمن بعيد . . . !

لم تبرح خيالي صورة حوادث اليوم الفائت طول المساء ، بل لقد عاودتني في أحلامي فها أنا أرى رفيقي ومعبودة قلبي بجانبي تبث الى شكوى غرامها وأبثها مكنون قلبي ، ها هي تقسم لي قسم الحب المقدس وها أنا أهب لها حياتي حتي الابد ، كذلك كانت صور الامس بين يدي طول الليل بل وأصبح الصباح وهي ماثلة في خيالي كأنها حدثت منذ هنيهة حتى صرت أشعر اني لم أعد أطيق صبراً على مفارقة صديقتي ساعة واحدة ولذا رأيتني فجأة اسطر لها الرسالة التالية وهي أول كتاب أخطه في حياة غرامنا الجديدة :

عزيزتي لوسي

كانت الساعات التي قضيناها أمس مما هي ما نالني في الحياة من الهناء منذ وجودي في هذا العالم حتى اليوم . لقد خدعت قلبي مراراً في حبه وما كنت أدري أن فؤادي يستطيع أن يتحمل

كل هذه السعادة التي منحتيها لي أمس ولكن روحك القوية ، روحك التي هي من روح الله هي التي أمدتني بهذه القوة العظيمة التي خلقتني من جديد وصورتني منذ البداية ماذا أقول وأنا أرى ان كل كلمة أسطرها لاتفي بالغاية التي أنشدها ولا تعبر عن حقيقة مافي نفسي فاذا سطرت اليوم فهي سطور سقيمة عليلة .

أن للحب لغة خاصة لا تعرفها غير القلوب لذلك كان عبثاً مني أن أضطر اللسان الى التعبير عن هذه اللغة التي هي ليست من الفاظه .

لقد أحببتك يالوسي منذ الصغر حتى بات حبك عنصراً من عناصري ومادة من مواد حياتي بل هو حياتي كلها لأنها مرتبطة به ففناؤها في فنائه وبقاؤها في بقائه ، ولقد ظلمت نفسي واشقيتها طول السنين الماضية بابطائي في بثك شكوى فؤادي وما كان يعزيني اذ ذاك عن شقائي بعض العزاء غير اني كنت أراك من حين الى حين في مجالسي ومجتمعاتي فاسمع من حديثك ذلك الاسلوب الجميل والنغمة السحرية وأرى فيك تلك الروح العميقة الساكنة التي طالما ملكت على مهجتي وفؤادي ، فشب قلبي ونما على تقديسها فيك وكذلك سيبقى بقية الحياة .

لاتمتني على انا لم أطنب الك جمالك وحسنك في حديثي وهو عادة الامر الذي تبتهج لسماعه نفوس الحسان لان نفسك السامية وروحك الشريفة التي تملكت على فؤادي قد الهتني عن كل شيء سواها ، لذا فكم كنت أراني سعيداً كلما سنحت لي فرصة الجلوس معك ساعة فأستشف فيها من بين غلائل نفسك أسرار هذه الروح الملكوتية التي هي من روح الاله والتي تستمد حكمتها من حكمته ، وفوق ذلك فأنه مع اعجابي بالجمال الشكلي فأني أعتقد أنه في المرأة كالزهرة اليانعة أجلها الى حين فلا تلبث أن تذبل وتفني او هو كالطلاء على الحائط لاتزال تعبث به الايام وتنال منه يوماً بعد يوم فتطفيء من بهجته قليلا قليلا حتي يزول تماماً ، وأما الجمال الروحي فأنه دائم لاتزيده مرور الايام الا جدة وبهاء فهو ينمو بالتجارب ويزهر مع الاعوام »

عزيزتي :

لايستطيع الغني ان يكون صديقاً للفقير ، لانه يحتقره ويزدريه فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، كذلك لايستطيع ان يمنح يد ابنته لشاب فقير لانه يرى انه يدنس شرف ابيها ولو كان من اهله قال انه يشقيها ويتعس حياتها ، لذلك عندما اراد اهلي خطبتك

لي منذ بضعة اعوام رايت اباك يجيب بالرفض : لا لاني اقل منه شرفا وأصلا ، وأنما لأنه غني ثرى يحمل لقب كونت وانا فقير معدم ليس لي من الالقاب والرتب شيء ولقد رأى من المجاملة وحسن اللياقة ان لا يجيب هذا الجواب دفعة واحدة فأجاب اجابة هي خليقة بالضعيف قليل الحيلة .

اسمحي لي يالوسى أن أقول مافي نفسى بصراحة لأن لى ضمير ايحاسبنى ويؤنبنى ، لذلك وجدتيني ياصديقتى إثر هذه الحادثة أعلنت أنّى لم أكن أحبك اولم يكن لدىّ فكرة او رغبة الاقتران بك فعتبت عليّ وقتئذ والدتك وكثير من الناس وقد تكونين أيضا علمت بشئ من ذلك فعتبت عليّ في نفسك وتزعزعت ثقتك فىّ على أن الحقيقة كانت غير ذلك فأنى ماصرحت أنّى لا أحبك الا لأدرأ سهما رماه فى صدري ابوك واحافظ على كرامتى التى اراد والدك ان ينتهرها . يمينا إن قلبي ما كان الا يتقد بنار غرامك ولو استطاع لارسل لهب نيرانه الى ذلك اللسان او الشفتين اللتين اعلنتا أنكار حبك زوراً وبهتانا ولقضى عليها قضاء تاما . ومن أجل هذا يالوسى أقسمت في نفسى قسما لايحله الا الموت ان لا اطلب من أبيك يدك الا بعد أن أطلبها

منك وتنحيها الي ثم الا افعل ذلك الا في الساعة التي يراني فيها الناس قادرا على اسعادك واسعادي .

أرأيت يا لوسي كيف ان الحب عظيم وكيف يكون عمله عظيما وكيف انه يحبب الى النفوس العظمة و الرفعة ، لقد كانت لي آمال كبار وأماني حسان وكانت نفسي مملوءة بعظائم الامور وجلائلها فلم يكن لتصريح ابيك اثر في نفسي الى هذا وطريقها في الحياة بل ما كان هذا الرفض منه الا ليزيدني عزيمة على عزيمتي وطموحا فوق طموحي لكي اكون عظيما كما كان يظن ابوك نفسه عظيما ، بل أريد ان اكون اكبر من ذلك ، لان اباك عظيم بالثروة فقط واما انا فأني اريد ان اكون عظيما بالمال والعلم والجاه وها انا ارى الله معي وسيكلل آمالي بالنجاح اخيرا كما كللها في الخطوة الاولى من حياتي ولسوف يتمم عليّ نعمته مادام في العمر بقية .

لوسي ، أني مارغبت في هذه العظمة من أجل نفسي فحسب بل من أجلك أيضا لتفخري بها بل وليفخر بها أبوك حتى لا يقول له قائل أنه منح يد أبنته لرجل فقير معدم ، ذلك هو ما دفعني اليه الحب الذي هو منبع العظمة ، ولكن الا ترين الآن يالوسي أن في تصريحي

الماضي من أني لا (احبك) نوبة تجنبوها اليوم ، لقد اصبح هذا
الاعتقاد سائدا بين الناس فهو سيعمي ابصارهم عنا ويمهد مكائدهم
عن مناوأتنا فنسعد بحبنا ونهنأ بغرامنا الى أن يدبر الله من أمرنا رشداً
ثم انى لم اكن اتأخر عن مفاتحتك أصرحي ومبادلتك عبارات
غرامى الا لأنك كنت صغيرة السن وقد كنت أخاف عاقبة
الخيبة وان تردّيني بالخسران لأني اعتقد ان كل نبات يزرع في
ارض غير أرضه او ساعة غير ساعته فهو اما ان تأباه الارض
فتنبذه واما ان ينشب فيها فيفسدها ، لذلك تأخرت حتي كانت
ساعةامس ، التي افضيت فيها اليك بأسرار قلبي ، تلك الساعة
التى ستظل ذكراها حية الى الأبد استمد منها قوتى وعزائي
فى الحياةوأتنس بها من وحشتي فى القبر

لوسي : هل لك ان تسعديني اليوم بمثل ما أسعدتيني به أمس .

ان قلبي يناديك ومهجتي تتوسل ليك فهل ستكونين
عند أملي فى كرمك وثقتى فى رحمتك ، لوسى : أني اتضرع اليك
ان تهبينى ولو دقيقة واحدة أتمتع فيها برؤياك واسمع فيها نغم
كلماتك العذبة ؛ اني في انتظارك فى مثل ساعة أمس ومثل مكانه
البارحة ؟ رولاند

ما كانت لوسى لترد تضرعى اليها ورجائى عندها فلقد حضرت فى الساعة المضروبة وقضينا مدة كانت من أهنأ أوقاتنا وكذلك تعددت مقابلاتنا بعد ذلك اليوم تارة فى المنزل واخرى بين حدائق باريس ورياض ضواحيها وما جاورها من القري والمدن وطورا فى دور تمثيلها اومسارحها وهكذا سعدنا بحياتنا عدة أيام كانت تطفح علينا فيها اسباب الهناء والنعيم ..

١١

الخطيب

في يوم ٢ اغسطس دق التليفون بشدة فهرولت اليه أرى ما الخبر ورفعت السماعة الى أذني فسمعت صوت «لوسى» يناديني فسألتها عما جرى فأجابتني بتلهف وبصوت متهدج أريد مقابلتك حالا في هذه الساعة لأمر هام وأني في انتظارك في محل «فارنو» الحلواني وفي الحال احضر لي الخادم سياره ركبتها وبعد نحو عشر دقائق وصلت المكان المعين فرأيت صديقتي جالسة الى أحدى الموائد مكبة برأسها الى صحيفة أمامها وكان يبدو على وجهها علامات الغضب والحنق كما كان لونها شاحبا أثر حالة شديدة من الحزن والألم ، عند ذلك خفق قلبي وتمشت الى نفسي روح الخوف والريب فلما أقبلت عليها حييتها فوقفت وسلمت على وضغطت على يدي قليلا بخلاف عادتها كأنها تريد أن تقول أنني اليوم اشد في حبي منى في يوم آخر .

جلسنا وسألتها عن امرها فأجابت :

انهم يريدون ان يقضوا على سعادتنا ويسحقوا قلوبنا

من ذا يفعل او يحاول ان يأتي ذلك ؟

أبي !

وكيف ؟

انه يريد ان يزوجني من فرنسوا روستان

وماذا كان جوابك له ؟

طبعا الرفض التام !

وماذا كان رده على ذلك ؟

انه متمسك برأيه وغير متنازل عنه رغم معارضة والدتي له

وما الذي يدعوه الى ذلك وعلام يفضل فرنسوا عن غيره ؟

يقول انه يرى كفيل بسعادتي وان اباه صديق له

يالها من سخافة وادعاء كاذب : متى كان المال وحده كفيل

بسعادة شخصين لا يربط قلبيهما حتي ولا رابطة وداد وعطف؟ :

ولكن ماذا قر عليه رأيك ياصديقتي ؟

اني طلبتك لاستشارتك والبحث عن افضل الطرق التي

نتخذها ازاء ذلك :

المسألة تحتاج الي تفكير وروية

لا ، اننا نريد الاسراع فى البت فى الامر فأن أبى يزعم أن حفلة الزفاف ستكون فى الاسبوع الاول من الشهر القادم على الاكثر .

ولكن ألم تحاولى ردع ابيك عن فكرته وماذا كان جوابه لوالدتك .

قلت انه مصمم على رأيه ولذلك ارى انه يجب ان نفر من وجهه

هل انت موافقة على فكرة الهروب وترتضى الفرار من فرنسا؟

نعم ذلك هو ما خطر ببالي

وهل انت مستعدة لمقابلة جميع المشاق والمصاعب التي قد تلاقينا فى طريقنا مع العلم بانه ليس لدينا من المال مايكفينا بضعة أسابيع في بلاد اجنبية ؟

نعم ، على اتم استعداد وستجد منى انسانا قويا قديرا على مصارعة متاعب هذه الحياة وتمهيد سبيله فيها !

وانا ايضا يالويس على اتم اهبة .

(اسمع يارولاند ، انى احبك حبا هو منتهى مايتصوره حى على هذه الارض ، انى لااريد ان اضحي بهذا الحب ، انى لااريد قلبا

غير قلبك وان يكون له بديلا ، أنك كل شيء لي في الحياة ، فبالله هل وثقت مني ؟

وهنا قاطعتها

هدئي من روعك وخفف من حدتك فاني عند قدميك قد وهبت لك حياتي فلا تتصورين أني أعيش بمدفقدك ساعة واحدة فأنا أنا فقط حي من اجلك واستمد قوتي وحياتي من روح غرامك ، فهل يداخلك ريب في ذلك !

كلا ، حاشا ان يحدث ذلك :

اذن دعينا نعود الى موضوعنا الاول فأي البلاد تفضلين السفر اليها ؟

انى ارى ان نرحل الى القارة الامريكية فهي بلاد واسعة الارجاء لنا فيها مأمن من دسائس الاعداء ومتسع من الاعمال

ذلك اختيار حسن فعلينا اذن ان نستفهم عن موعد اول باخرة تبحر الى ميناء نيويورك او غيرها من الموانيء الامريكية في هذا الاسبوع او الذى يليه :

لقد استفهمت قبل وصولي هنا وعلمت ان الباخرة « بون فوياج »

ستبحر في منتصف الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين من الاسبوع القادم من ميناء الهافر ثم الى نيويورك .

اذن فلدينا وقت كاف لنهيء تذاكر السفر والتصريحات في خلال هذا الاسبوع وسأبدأ فى ذلك من صباح الغد ثم نسافر فى اول قطار يغادر باريس من صباح الاثنين القادم فنصل الى ميناء الهافر فى منتصف الثالثة مساء اى قبل موعد ابحار السفينة بساعتين .

هو كذلك وانى اودعك الآن يارولاند وموعدنا غداً في نفس هذا المكان فى مثل هذه الساعة ثم حيتنى وانصرفت .

*
* *

كان كل مالدىّ من النقود في ذلك الوقت هو مبلغ الفين ومائة فرنك وهى الباقية عندي من هبة الجامعة سندفع منها للباخرة نحو ١١٠٠ الف ومائة فرنك والسكة الحديد من باريس الى الهافر نحو مائتى فرنك ثم نشترى منها بعض اللوازم الضرورية لسفرنا مثل تليسكوب وبعض الاطعمة والسجاير بنحو ثلثمائة فرنك ثم نصرف منها ايضا فى اثناء سفرنا نحو خمسين فرنكا ومثلها فى الباخرة فتكون جملة

مصروفاتنا حتى وصولنا الى ميناء نيويورك هى الف وسبعمائة فرنك ويكون الباقى معنا هو مبلغ اربعمائة فرنك لا غير وهو مبلغ وان يكن يسيرا فهو يكفينا عناء الجوع وشر الله حتى نجد عملا نكتسب منه

قدرت هذا الحساب فى خيالي بينما كنت سائرا فى طريق الى المنزل وفى صباح اليوم التالى عجلت بالذهاب الى مكتب الباسبورت وبعد ذلك قصدت مكتب شركة البواخر الفرنسية حيث اشتريت تذكرتين وحجزت لنا محلين بالدرجة الثانية بالباخرة «بون فوياج» وكذلك تم كل شيء تقريبا

وبعد يومين من ذلك استلمت تصريحات السفر ثم اشتريت ما رأيته ضروريا من لوازم رحلتنا وفى صباح الاحد اعددت حقيبة ملابسى الصغيرة لاني لم أشأ اخذ شيء كثير من الامتعة حتى لا يضايقنا فى سفرنا ، وفي مساء ذلك اليوم قابلت لوسى بمحل «فارنو» حيث قضيت معها ساعة ثم انصرفنا على أن يكون موعدنا غدا الساعة السادسة صباحا بفناء المحطة . : :

١٣

في السفينة

في الساعة السادسة وربع تماماً من صباح يوم الاثنين ٥ اغسطس اخذت مقعدي باحدى عربات الدرجة الثانية وجلست لوسى الى جانبي وفي منتصف السابعة تماماً تحرك القطار من مدينة باريس الجميلة وكان الجو رطباً وتملؤه بعض السحب الكثيفة التي انقشعت بعد ساعة تقريباً ثم بدأ الكون يمسح عن عينيه سنة الكرى وقد اطلت الغزالة من خدرها تضيء الفضاء بشعاعها الذهبي فكنت ترى على اليمين والشمال من نهر السين سهولاً متسعة ناضرة وحقولاً خضراء وقد ترى سرباً من الاشجار او بعضاً من الاحراش الصغيرة وهي تتخلل المساحات الواسعة كما ترى من بعيد السهل المنحدر على شاطىء السين من الجهة اليمنى للخط الحديدي .

وصلنا مدينة روان في منتصف الساعة الحادية عشرة وكان

الجو صحواً فبدت المدينة تحت اشعة الشمس وزرقة السماء كأنها قطعة من الفردوس تخلب الانظار ببهائها على ان القطار لم يمكث بها طويلا فقد غادر المحطة بعد خمس دقائق من وصوله اليها وقد كنا وقتئذ نطل من نافذة المركبة واذا بربوة اخذت ترتفع من بين الحقول الخضراء واستمرت تظهر قممها شيئاً فشيئاً ، رأس برج ثم اطراف بضعة اعمدة رخامية بيضاء ناصعة تحققنا منها بواسطة التلسكوب بأنها مقبرة احدي القرى القريبة وان هذا البرج هو للكنيسة المجاورة لهذه المقبرة .

من بين هذه القبور التي ادخلت في قلبي انا ولوسى شعور التجلة والاحترام لها استلفت نظرنا قبر كان معلقاً فوق الارض يحمله تمثالان من الرخام على شكل ملاكين لهما أجنحة موضوع عند رأس كل منهما اكليل من الازهار فيه دائرة من الورد الاحمر تتقاطع مع خط من الازهار البيضاء .

فقالت لوسى :

الست تشعر بشيء لرؤية هذا القبر ؟ انه يؤلمني وجعل قلبي يخفق له خفقاناً سريعا .

أجل ، ان شكله يدعو الى الاهتمام ويثير الالتفات وجود مثل

هذه الاكاليل فوقه دليل على ان الميت فتاة عذراء كانت تحب فان الورد الاحمر دليل الحب والأبيض دليل العذارى !

يالها من مسكينة بائسة مخلصة في حبها وفية لحبيبها ، اني لم اتألم قط لغيرها بمثل المي لها !

هذه حقيقة يالوسى لانك تشرفين الآن عليها بين القبور

آه ، يارولاند اني اخاف ، اني ارتعد

لاتخافي ودعى عنك ذكر القبور والآن متعي الطرف بمناظر الطبيعة البديعة او تعالى نجلس لنقرأ صحف اليوم فاني قد احضرتها معي من باريس .

ولم تمض بنا بعد ذلك مدة طويلة حتي سمعنا صفير القطار يؤذن بالوصول

وما هي غير برهة حتي وقف عند رصيف محطة الهافر فانزلنا حقيبتينا احداهما لي والثانية للوسى ثم قصدنا تواً المرفأ حيث وجدنا السفينة راسية فعرفنا فيها حجرنا واسترحنا قليلاً ثم سرنا نشاهد مناظر الميناء وقبيل الميعاد المعين لابحار الباخرة اخذ الرصيف يزدحم بالناس من المسافرين والمودعين لهم وفي منتصف الساعة الخامسة تماما تحركت الباخرة تشيعها دعوات الاصدقاء

والاقرباء وترفرف وراءها مناديل الاحباء والمخلصين تبعث الى الركاب تحيات الوداع ...

* * *

يرى المسافر براً انه بين سلسلة مناظر متتابعة تسليه فى وحدته وتسامره فى وحشته وتشعره بأنه لا يزال متصلا بطرف هذه السلسلة الاول بوطنه العزيز وبلاده المحبوبة وعلى العكس من يسافر عن طريق البحر فانه يجد ان هذه الحلقة قد انقطعت بمجرد وطء قدمه سطح السفينة فيشعر كانه فصل عن هذا العالم وانتقل الى حياة مملوءة شكوكا غير مأمونة ، فبينه وبين وطنه يم واسع مترامى الاطراف عرضة لعصف الزوابع وقصف الرعد وهبوب الاعاصير والرياح حيث المخاطر والمخاوف

كذلك كانت حالى عند ماشيعت آخر اثر من ارض فرنسا المحبوبة ، وهى تتوارى تدريجيا وراء الابعاد السحيقة حيث اختفى معها أعز مالى فى الحياة .

ماذا اعانى من المخاطر في طريق وماذا الاقى من حوادث ومتى اعود الى وطنى المحبوب ، وهل لى نصيب فى رؤيا ارضه

واهله ، ذلك ما اجهله

ان في السياحة البحرية متسع عظيم لأهل الخيال لارسال افكارهم بين ذلك الافق الممتد حيث الهدوء والسكينة

ولقد كان من دواعي بهجتي ان اطل من نافذة غرفتي او أصعد مع رفيقتي الى سطح الباخرة في الايام الهادئة ذات الجو اللطيف فنقضي الساعات الطويلة نتمتع بنسيم الماء العليل كما نمتع الطرف بأسراب السحب الذهبية التي تشرف على الافق فتحديه حرارة الشمس الساطعة ، اونراقب رشاش الامواج المتدحرجة فوق صفحة الماء وهي ترغي وتزيد وتسير وتتهادى وتتبختر حتى تحتضن تلك الشواطىء الجميلة

ولقد كنت اشعر بأحساس لطيف ممتزج بالتجلة يملأ قلبي كلما نظرت من قمة السفينة نحو تلك الأغوار السحيقة والاعماق البعيدة حيث تأوى فصائل الاسماك العديدة والحيتان الضخمة وهي تغدو وتروح في عالمها اللانهائي .

ولقد كان يذهب بي الخيال أحيانا الى التفكير في صنع السفينة التي تمخر عباب الأمواج وهي ذلك الاختراع البشري البديع بل تلك القطعة المجيدة من فخر الانسان التي اذعنت لها

الرياح والامواج فوصلت بين أطراف المعمورة وربطت بين اهلها المتباينين ، وتبادلت بينهم خيراتهم المختلفه وأخصبت بلادا مجدبة وأثرت أمما فقيرة ونشرت معارف الامم القديمة بين أهل أختها الحديثة وكذلك عملت على ترقية العالم والاخذ بناصر المدنية والعمران .

في اليوم الثالث لمغادرتنا ميناء الهافر أخذت السفينة تجف في سيرها وقد كانت السماء صافية والامواج هادئة وبدأ يهب علينا فوق سطح الباخرة نسيم منعش من البحر الايرلندى وقد كانت اضواء الشمس الشارقة اخذت تموه الامواج بلونها العسجدى الجميل مما يبهج النفوس ويشرح الصدور كما زاد في بهجتها رؤية تلك الطيور المائية التي اخذ يكثر عددها فوق سطح المياه وهي تقفز من مكان الى آخر وتطأ مقدميها قمم الامواج بدون اكتراث ثم لم تمض غير ساعات قليلة حتي سمعنا صيحات الهتاف والابتهاج بين الركاب النازلين في ليفربول ذلك الميناء العظيم الذى يبدو منظره بديعا بين عدسات التليسكوب .

وبينما كانت السفينة تقترب من مصب نهر المرزي اخذت تجذب انظارنا تلك الاكواخ الجميلة المكسوة بالنباتات الخضراء

اليانعة والحشائش السندسية ثم توالى ظهور مبانى المدينة الضخمة واستمرت أبراج الكنائس ومداخن المصانع تتدرج صاعدة بعلوها الشاهق من وراء التلال المشرفة على الشاطيء فكان المشهد غاية فى البهاء والابداع

واستمر الريح هادئاً والنسيم عليلا حتى وصلنا الى لسان من الارض وكان مزدحماً بالناس من المستقبلين وأصحاب المتاجر والاعمال فأخذت الجموع المحتشدة تتبادل التحيات والتسليمات ومنهم من يسرع فى خطاه يبحث عن صديق ومنهم من يقف بغتة عند رؤية رفيق أو صاحب لم يره منذ مدة وكذلك مضت ساعة على هذا الحال . . . ولما كان موعد السفينة أن تبحر فى صباح اليوم التالى فقد نزلنا منها وأخذنا نطوف فى انحاء ليفربول حيث رأينا مصانع القطن العظيمة ومخازن البضائع الهائلة واحواض السفن التي تنبيء عن أهمية الميناء ليس فى بلاد الانجليز وحدها بل فى العالم أجمع .

مضى على ابحارنا من ليفربول نحو ثلاثة ايام وبينما كنت ولوسى نطل من النافذة واذا بها تشير بيدها الى شيء بعيد يطفو فوق الماء وهي تقول :

أنظر . ماهذا انه يرعبني ويثير في قلبي الخوف ؟ !

فأجبتها ، لا شيء ولعلها قطعة خشبية تخلفت من بعض السفن التي تشق عباب هذا المحيط في كل حين ، وفي الحقيقة ان كل شيء كان يعكر على اليم هدوءه كان يبعث الى التفكير ويولد الهواجس ، ولما اقتربنا من هذا الشبح تحققت انه قلع سفينة غارقة طبعاً وهذا من بقاياها بعد أن ابتلعها المحيط عن آخرها في أعماقه البعيدة وكذلك استفرغ منى أثر هذه السفينة كل اهتمامى في تلك الساعة .

ترى أي سفينة هذه وما اسمها ؟ انه ليس هناك اى أثر يدلنا على معالمها ولكن من المحقق ان الغرق حدث منذ زمان بعيد بدليل تراكم هذه الاعشاب والحشائش واصداف الاسماك حول قطعة الخشب ولكن اين ذهب بحارتها وركابها ؟ وهنا مرت سحابة الكآبة على وجهى وتملك شعور الألم في فؤادى ، انهم غالباً قد استشهدوا جميعاً بعد ما عانوا من الكفاح أشده ومن النضال أعظمه ، فسقطوا جميعاً بين مخالب الزوبعة وزئير الرياح وتهشتهم الامواج والحيتان والآن فلابد ان عظامهم البيضاء تلمع بين تلك الاغوار البعيدة

من يستطيع ان يسرد ما داهمهم او يصف ما نزل بهم من القضاء ؟

لا احد بل قد أرخى عليهم النسيان اسداله ومحى صحيفتهم من مجلد هذا الوجود .

كم كانت التنهدات التى شيعت السفينة ، وكم هي الصلوات التي صليت من أجل من فيها عند الرحيل ؟

كم من فتاة او عذراء او زوجة او ام تزاحمت على الصحف اليومية لعلها تعلم من أمر شقيقها او زوجها او وحيدها من خبر ولكنها باءت بالخيبة وعادت بالحسرة والألم .

كم أظلمت اضواء آمالهم بين طيات الشك وتشعع الشك الى سحب الهلع والخوف الذى تحول الى اليأس التام .

وآسفاه ، ليس هناك من تذكار واحد نراه يذكرنا بأهل هذه السفينة المنكوبين وانما غاية ما نعرفه هو أن السفينة ابحرت من مرساها ثم لم تعد بعد : !

بينما كانت تساورنى هذه الافكار لذكرى السفينة الغارقة كان الليل أخذ ينشر رداءه الاسود فوق السكون وكانت هذه الذكريات بدأت تدب علائم الخوف في نفسى ولكن ما لبثت

أضواء البدر حتى سطعت فى كبد السماء فبددت برؤياها كل آثار الخوف والريب ، فمكثت ولوسى فوق سطح الباخرة حتى ساعة متأخرة من الليل ونحن نناجى القمر ونستنبئه عن نوايا مستقبلنا وما خطته يد القدر لنا فى ألواح الغيب وما زلنا كذلك حتى دعانا سلطان النوم الى المثول فى حضرته فذهبنا الى فراشنا حيث انتقلنا من هذا العالم وجلبته الى عالم السكينة والاحلام

وبينما كنا فى سباتنا العميق اذا بنا نهرع من اسرتنا ونسرع الى ارتداء ملابسنا على أثر اصوات مزعجة وصراخ مفزع أصوات الاجراس تهدر فى الفضاء والبحارة تنادى بعضها البعض والربان يصدر أوامره مسرعاً والمسافرون يتضرعون الى الله والاطفال يصرخون ويعولون وكذلك قد ساد الهرج والمرج فوق السفينة فدخل الرعب على لوسى وأخذت ترتعد فزعاً . . .

لقد كنا حوالى الفجر من صباح اليوم التالى وقد تجهم الجو بالسحب وانتشر ضباب كثيف فى الجو بحيث لم نكن نستطيع نظر الاشياء الا من خلال الاضواء الضئيلة التى كانت تنفذ الحين بعد الحين من بين شقوق الغيوم ومن المشاعل الضئيلة الباقيـة فوق سطح السفينة ، وقد بدأ الريح يهب من الجهة الشماليـة

الشرقية بشدة وتحول الجو بغتة الى برودة متجمدة حتى شعرنا برعشة تسرى فى أجسامنا وبعد لحظة تعالت أصوات الهول والفزع والتوسل والرجاء واليأس والقنوط ثم ظهرت صخرة ثلجية عظيمة من تحت الامواج فأضاءت ببياضها ظلمة الضباب وسمعنا على أثرها صوت صدمتها الهائلة بمقدم السفينة التى فغرت فيها ثغرة ينفذ اليها الموت مع سيول المياه التى أخذت تتدفق الى داخل السفينة بسرعة وفى تلك اللحظة ارتعدت فرائصنا جميعا ودب الينا نذير الخوف وأخذت لوسى تلتصق بى من شدة الهول وتترنم ببضع كلمات أخذت تختنق بين همهمة العويل والبكاء .

هنا غرقت بين الحيرة وبين الارتباك وكان بجانبى أحد الضباط الكنديين فسألته ما العمل ؟ فأجابني باستغراب وثبات عجيب . الموت ! الموت ! . . .

علت الاصوات وزاد الضجيج ثم سمعنا صوتا من جانب الربان فى الطرف الآخر من السفينة التى لم يبق عن أن تلثم مقرها الاخير الا دقائق معدودة ، يقول الى قوارب النجاة . . اقفزوا . انزلوا اليها ، وكانت قد أنزلتها البحارة من أمكنتها الى سطح الماء ولحسن الحظ كانت أضواء البحر قد اتخذت لها منفذاً بين ثنايا

الضباب ، على أن رفيقتي في ذلك الحين كانت في حالة ضعف شديد
بحيث لا تستطيع أن تحرك قدماً عن آخر وقد حار فكرى في
حملها والنجاة بها ولاحظ الضابط الذى يجوارى علائم الحيرة واليأس
على محياى فتقدم نحو الفتاة وحملها بين ذراعيه وبمهارة مدهشة
خطا خطوتين ثم قفز الى احدى القوارب القريبة وكانت محاذية
لنا تقريباً لان الماء الذى أثقل السفينة قد أسقط جزءاً كبيراً من
قاعها تحت الماء ، فملأت قلبي نشوة الفرح والسرور لنجاة لوسي
وشكرت صديقنا الضابط من اعماق فؤادى ، ثم تذكرت أمتعتنا
وحاولت أنقاذها ولكنى من شدة سرعتي ضللت عنها جميعها ولم
أعثر الا على السلة التي كنا أشتريناها من ليفربول ، فتناولتها في
يدى ووثبت بها نحو القارب وبذلك صرنا نحن الثلاثة الضابط
ولوسى وأنا في أمان من الخطر الداهم والموت المحدق بالسفينة .

أخذ الضجيج يعلو ويزداد وأسرعت الركاب الى النزول في
قوارب النجاة ومنهم من سقط بين الامواج والمياه فلاقى حتفه ولم
نكد نستقر في القارب حتى أخذت أنا والضابط نجذف بهمة
لنبتعد عن مكان الخطر فأنه لن تمضى برهة وجيزة حتى يفغر المحيط
فاه ويبتلع تلك السفينة لقمة سائغة ولا يبعد اذا بقينا في مكاننا أن

نذهب بين الدوامة التى ستحدثها المياه اذ ذاك ، وبعد بضع دقائق صرنا على بعد مئات الامتار من السفينة المحتضرة ثم سمعنا حركة هائلة اقشعرت لها الابدان وخارت لها القوى والفرائص فقد رأينا السفينة تهوى بسرعة نحو قاع المحيط ومعها أصوات كثيرة لم تلبث أن اختفت تحت أعماق الماء وقد انفجر اذ ذاك موقد الباخرة عند اتصاله بالماء فأحدث فرقعة هائلة وعلته سحب كثيفة من البخار والدخان انضمت الى آثار الضباب المنتشر فى الجو فأقامت سداً بيننا وبين رؤية ماحولنا من مناظر الامواج المروعة وقوارب النجاة التى تحمل الركاب الفارة أمام جيوش الموت ، ولم نبعد قليلا حتى هدأت الاصوات الصارخة فعلمنا أن السفينة قد لمت مقرها الاخير .

١٣

في قارب النجاة

أستمر تجذيفنا أكثر من نصف ساعة ونحن لاندرى أين طريقنا ولبهجتنا رأينا أشعة الشمس المنيرة تبددبأضوائها ظلمات الضباب ثم سطعت الأنوار المشرقة فوق سطح المحيط فأعادت اليه بهجته وجماله على انه لدهشتنا لم نر حولنا او قريبا منا ولاقارب مما كانت معنا ونظرنا فوجدنا أنفسنا منفردين بين أرجاء هذا الخضم الشاسع.

كنا على مسيرة يومين اذ ذاك من مرسانا نيويورك وقد هالنا أن نجد أنفسنا وحيدين هذه المدة الطويلة في تلك الجهات المجهولة ولا مؤونة معنا على أن الضابط الذى كان يرافقنا كان شجاعا جريئا ذاق من اهوال المواقع والحروب الشيء الكثيرفأخذ يصبرنا ويسرد علينا من أحاديثه ومخاطراته العجيبة ماسرى عن أنفسنا وشرح صدورنا وتذكرت السلة التي معنا ففتحتها فوجدنا بها

زجاجتين من الكونياك وثلاث علب صغيرة من اللحم المثلج وصندوقا صغيرا من «البسكوت» وهذا كل ما كان لدينا من المؤونة وهى الباقية مما اشتريناه من ليفربول فحمدنا الله فقد أمنا بهذا الطعام القليل شر ألم الجوع ورتبناه على أن يكفينا ثلاثة أيام على الاقل بحيث اذا أكلنا لا نشبع وانما نأكل لنضمن بقاءنا احياء فى هذا العالم .

استمر بنا السير يوما كاملا وكان الضابط لحسن الصدف يحمل معه بوصلة بحريه أهتدينا بواسطتها الى الطريق الصواب كما انه كان عالما بفن البحريه لانه كان ضابطا بحريا فى الاسطول الأنجليزى الكندى فأخذ يقود انا القارب حتى جاء الثلث الأخير من الليل فشعر بدوار فى رأسه وارتفعت درجة حرارة جسمه وقد تحققت بعد مدة من أنه أصيب بحمى شديدة ويظهر ان كبر سنه قد اثر فى قواه العصبية وأن برودة الليلة السابقة علاوة عن انه لم يكن لدينا من الاغطية غير ملابسنا التى نرتديها قد سبب له الاصابة بهذه الحمي التى اخذت تشتد عليه ساعة بعد اخرى ومع ما كان فيه من مرض عضال فأنه استمر يمدنا بارشاداته المتواليه عن سير القارب الذى صرت اجذف فيه وحدى بينما كانت لوسى جالسة

تصلي من اجل هذا الضابط المسكين على ان مخالب المرض اخذت
تنشب في جسمه بشدة حتى شعر بخطر الموت الذي احدق به
فاخرج من جيبه قلما وظرفا وكتب بيده المرتعشة رسالة لزوجته
ناولها لي وقال اوصيكم ان تسلموا هذه الرسالة الى عائلتي عند
وصولكم نيويورك بالعنوان المكتوب فوق هذا الظرف واني
اسأل الله لكم السلامة فذرفت من عيوننا الدموع وابتهلنا الى
الله ان ينجيه من دائه ولكن الموت كان يدب الى روحه دبيبا
متواليا فشحب لونه واسبلت عيناه وانتشر على وجهه جلال المنية
ولم تمض هنيهة حتى فارقته الروح صاعدة الى لقاء ربها الكريم
فجثونا على افخاذنا وصلينا من اجله ثم اخرجنا من جيبه محفظة بها
بعض الاوراق وساعة ذهبية وحوالة مالية بخمسمائة دولار على
مصرف نيويورك ولم يكن لديه غير ذلك فربطتها جميعا في منديل
له ووضعتها في جيب معطفي مع الرسالة ثم حملته بين يدي
وواريته مثواه الاخير تحت الامواج المتلاطمة مشيعا اياه بحسرة
لا تزال تعاود قلبي حتى اليوم فبكت لوسى بكاء مرا فقد اخذ
المنظر المروع بمجامع قلبها كما ذرفت عيني الدموع بشدة

أجل أيها الموت كم أنت قاس (لاقلب لك)، تفرق بين

الاصدقاء والاحباء بلا رحمة ولا شفقة

نعم اننا نحزن على الاموات لاننا لا نريد مفارقتهم فحسب فأى جرح نريد تضميده او أى حزن نهوى ان ننساه نرى انه من الواجب علينا ان ندعه مفتوحا لا يندمل حتى يظل ألمنا داميا وحزننا باقياً على مصابنا الاليم .

فأين هى الام التى تنسى راضية ابنها الراحل وهو الزهرة اليانعة التي اختطفتها المنون من بين يديها ، مع أن كل ذكرى لديها كسهم مريش ينشب فى صدرها !

أين الطفل الذي ينسى راضيا ابويه الرحيمين مع ان بقاء ذكراهما فى فؤاده موجبا لحزنه وألمه .

من هو الصديق — حتى الذى يشعر بأن الحزن يسحق قلبه سحقا — الذى يستطيع ان ينسى صديقه الذى أعزه وأحبه حباً خالصاً .

كلا ، لا يستطيع أحد ذلك ابداً وكذلك كان حالنا مع هذا الضابط فان حتفه كان لدينا مصدراً لكثير من الامنا فى أيامنا المقبلة .

*
* *

لم يبق بيننا وبين الوصول الى الشاطىء غير سحابة نهار تنقشع وتسود حيث الطمأنينة والسلام فأخذت أجهد نفسى فى التجذيف وبمساعدة البوصلة البحرية وارشادات ضابطنا الراحل أمكننا أن نتقدم تقدما محسوسا فى المحيط حتى كدنا نرى بصعوبة بواسطة التلسكوب قمم الجبال القريبة من الشاطىء الامريكى فسرى فى قلوبنا نسيم الفرح وبدت على محيا رفيقى علامات الاطمئنان والهدوء وداومنا نكد فى السير ومن شدة شوقنا الى الوصول حسبنا ان الدقائق لا تمر ، وهب علينا نسيم الماء فتمسمنا أن نصل الى الشاطىء بعد غروب الشمس بساعتين او ثلاثة بمعاونة هذا النسيم وكذلك كنا على وشك الانتهاء من رحلتنا الشاقة .

واذ كان القارب يتقدم في فضاء المحيط رأينا عن بعد بين تجاويف التليسكوب وبين أشعة الشمس الضئيلة طرف فنار الميناء يظهر ويختفي بين الشواطىء القريبة فملئنا الامل على أن يكون ذلك هو فنار نيويورك وأن تكون تلك هى شواطىء

بلاد أمريكا الجميلة وقد قوي فينا الأمل بقرب الوصول . رؤيتنا للأعشاب وفروع الاشجار المتراكمة هنالك حيث كان تيار الماء يدفعها أمامه تجاه الشاطئ . وبينما كنا نقترب من هذه الحشائش لاحظنا ان لون الماء قد تغير فجأة وأصبح أكثر زرقة من ذي قبل كما شعرت كأن قوة أخذت تقاوم المجاذيف بين يدي ثم بدأ القارب ينحدر سريعاً في اتجاه التيار وقد ظننت أن في هذا المكان دوامة مائية او مثل ذلك فأوجست خيفة الغرق على أني تشجعت وأظهرت عدم الاكتراث لكي أشجع رفيقتي . وتشددت في التجذيف ولكن عبثاً حاولت تحويل القارب عن اندفاعه فقد كان يمرق في الماء مروق السهم من وتره فتأكدت من وجود تيار مائي شديد في هذه الناحية وارتاعت لويسى من هذه المباغتة وأكبت برأسها بين يديها من شدة الجزع وأخيراً طرحت نفسها فوق سطح القارب ويظهر انها استسلمت الى نوم عميق . وثارت الريح قليلا اذ ذاك وأخذ الماء يرتفع وينزل رشاشه على وجوهنا حتى حسبت الموت قد أراد ان يمر منفذه فينا ولكن هدأت حركة القارب وشعرت كأنه أخذ يسير بنظام في مجرى معين يشق ماء هذا المحيط وكانت الشمس قد غربت تماما فصرنا في ظلام

دامس اللهم الا شعاع ضعيف تبينت فيه بكل صعوبة وجه لوسى وعلمت من حركة أنفاسها أنها بحالة عادية فحمدت الله وكان التعب والجهد نال منى مناله فأسندت رأسى جانب رأسها وسألت الله حفظه ورعايته ثم أغمضت عيناى وسار القارب يتقدم فى مجراه كما شاءت له الاقدار ان يذهب

وحوالى منتصف الليل استفقت من نومى وكان التيار لا يزال مسرعا والقارب مندفعاً معه الا أن أضواء القمر بدأت تسترق مسالكها بين الضباب المتكاثف اذ ذاك جلست مكانى وملت نحو صديقتى وأيقظتها برفق فأفاقت وقالت :

أين نحن الآن يا رولاند ؟

فهدأت من روعها وطمنتها ومددت يدى نحو زجاجة الكنياك الوحيدة الباقية لدينا فناولتها منها قليلا مع قطعة من بقايا اللحم المثلج وكذلك هدأت من هلعها وأخذت أبشرها وأمنيها بقرب سلامتنا

بعد ذلك بقليل كان كل شىء على ما يرام فلقد أخذ الضوء يزداد كما بدأ الهواء يكون منعشاً على أننا بعد برهة شعرنا بأن الجو أصبح حاراً كما ان الماء صار يتدرج فى الدفء قليلا قليلا حتى

تخيلت أننا فى حمام حار أو قرب احدى مدافىء الشتاء فتأوهت رفيقتى من شدة الحرارة فهونت عليها من أمرها وصبرتها ولكن الحرارة استمرت تزداد لحظة بعد أخرى حتى كادت تخنق أنفاسنا ثم رأينا أبخرة متكاثفة بدأت تعلو وجه الماء بالقرب منا وتكون فوقه سحباً متلبدة ، فعجبت لذلك وساورتنى افكار عديدة خيفة أن نكون قد اقتربنا من بركان ثائر أو شىء من ذلك وهناك تكون الطامة الكبرى . على انى استبعدت وجود هذا الفرض لأنى درست طبيعة هذه الجهات فلم أعلم مما عرفت بوجود مثل هذه البراكين فى هذه المنطقة وأخيرا تذكرت انه ولابد ان نكون قريبين من مجرى التيار المسمى بتيار الخليج أو اننا قد اجتزنا جزءاً منه فتضرعت الى الله أن ينجينا من مخبآت القدر ويعاوننا على اجتياز تلك المفازة المهلكة ، ثم أسرعت الى المجاذيف واخذت اجذف بهمة اليائس الفار من وجه العدو وحولت القارب تجاه الاضواء المتشعشعة التى كانت تسطع من قمة الفنار القريب واستمر بنا الحال كذلك حتى ما بعد الفجر وقد انتقلنا الى منطقة اكثر هدوءا واعتدالا وقد زالت تلك الحراره التى افحتنا منذ ساعات قليلة وما اشرقت الشمس

حتى رأينا الشاطيء قريبا منا جدا فاضاء في قلبي روح الامل والسرور وقد وجدنا القارب يطفو فوق مياه خليج واسع جميل حيث كانت اشعة الشمس الذهبية تنعكس على مياهها الزرقاء فتكون الوانا جميلة .

حمدت الله وهنأت لوسى بنجاتنا ووصولنا بسلام الى بلاد اميركا . وانه قد انتهت آلامنا بعد ولم يعد أمامنا ما يرعبنا ويحزننا واخذنا ننظر الى الشاطيء الذى لم يكن يبعد عنا باكثر من الفى متر والى ما بجانبه من القوارب الصغيرة وجموع البحارة والناس بشيء من الشوق والسرور . ثم شربنا ما بقى في الزجاجة من الكونياك والتهمنا بقية قطع اللحم وكان الجوع قد طاف حول امعائنا ، ثم اخذنا نصلح في ارتداء ملابسنا وتذكرت كيس نقودى فاخرجته من جيبي وعددت ما به من النقود فوجدتها قطعتين من الذهب الانجليزى وسبع قطع من الدولارات الامريكية ونحو خمسة عشر قطعة فضية من الفرنكات الفرنسية ثم ورقة مالية بمبلغ ثلاثمائة فرنك وهى التى كانت باقية معناه

شددت ساعدي في التجديف وأخذ الهواء النقي يجدد من قوتي ولم يحل وقت الزوال حتى بلغنا الشاطيء حيث اتجهت الينا انظار كل الجموع المحتشدة على الرصيف واستمروا ينظرون الينا بدهشة وعجب كأنهم يستفهمون من نحن ؟ ومن اين أتينا ؟ وكيف وصلنا الى هذا المكان . . . ؟

١٤

فى أمريكا

وعند ما وطئت أقدامنا أرض الشاطيء تقدم نحونا بحار هرم وسألنا ان كنا فى حاجة الى خدمة فشكرته لاننا لم يكن لدينا من الامتعة والحقائب شيء فجميعها غرقت مع السفينة ، وقبل ان ينصرف تذكرت ان أنوط به حفظ القارب الذى معنا حتي تستلمه شركة البواخر التابعة لها السفينة الغارقة فسألته عن اسمه وأفهمته عن مأموريته فتقبلها شاكراً ووعدته ان أنقده نظير خدمته أجراً كافياً فاستبشر محياه وعاد الى القارب ثم أخذت ذراع رفيقتى فى يمناى وركبنا عربة من رصيف قريب وأمرت السائق ان يذهب بنا الى أقرب مطعم ولم تمض عشر دقائق حتي وصلنا الى مطعم كبير فى الشارع المجاور حيث جلسنا الى مائدة في زاوية منه فلما قدم الينا الخادم قائمة الاطعمة طلبنا منه بضعة اصناف من اللحوم والخضراوات ثم الفواكه والحلوى

وزجاجة من النبيذ .. الخ وفي الحقيقة كانت كمية ماطلبناه عظيمة جداً تكفي لاطعامنا يومين كاملين لا لأكلة واحدة ولكن الجوع القاتل كان صمم على تمزيق أحشائنا فلم نكن نستطيع ان نفدي امعاءنا بأقل من هذا الغذاء وخصوصاً بعد ان مضى علينا نحو ثلاثة ايام ونحن لا نتناول من الطعام الا بمقدار مايتناول المريض من الدواء وبلغ ثمن ما أكلناه نحو ثلاثة دولارات ونصف وهو طبعاً ثمن غال بالنسبة لما لدينا من النقود القليلة على اننا تسامحنا لبطوننا في هذه الاكلة وخصوصاً بعد تلك الرحلة الشاقة وعزمنا على ان لا نعود الى مثلها حتى نصبح في سعة من العيش .

كان همنا بعد ذلك ان نجد فندقاً نبيت فيه ، لذلك ناديت سائق عربة وسألته عن أسماء بعض الفنادق التي بالمدينة فعدد لي منها الشيء الكثير واخيراً طلبت منه ان يدلنا الى فندق لا يتقاضى منا أكثر من دولار واحد في اليوم عن الاثنين ، فألهب الخيل بسوطه وأخذت عجلات العربة تلف دورات سريعة ثم وقف بنا فجأة بعد نحو نصف ساعة أمام فندق اسمه « نيوانجلاندهوتل » فلما نزلنا أنقدناه أجره ثم صعدنا الي أعلى الفندق حيث قابلنا

مديره فحجز لنا حجرتين من داخل بعضهما بسريرين والفندق على العموم نظيف وأثاثه متوسط في الجودة وان يكن جميلا في الشكل وهو يقع في وسط المدينة تقريباً

بعد ان تسلمنا غرفتينا فكرنا في خلع ملابسنا ولكن تذكرنا انه ليس معنا غيرها ولذلك قصدنا تواً محلا تجاريا في نفس الشارع الذي به الفندق فاشترينا ما رأيناه ضروريا جداً لنا من الأردية وقد كلفنا ثمنها قيمة القطعتين الذهبيتين الانجليزيتين اللتين كانتا معي ، ثم عدنا الى الفندق فأبدلنا ملابسنا ، ولما كان التعب والنصب قد نال منا مناله فاننا رأينا عندئذ ان نريح أجسامنا بقية هذا اليوم وكانت الساعة اذ ذاك في منتصف الرابعة ولم يمض قليل حتى غرقنا في سبات عميق ..

أشرقت الشمس وملأت بأضوائها أرجاء الفضاء عندما فتحت جفني فرأيت اسلاكها الذهبية تطل من نافذة حجرتي وكانت الساعة اذ ذاك في منتصف الثامنة صباحا ، فدخلت الى حجرة صديقتي فوجدتها لاتزال نائمة فلم أشأ أن أقلقها وناديت الخادم وأمرته ان يشتري لي صحيفة « نيويورك جورنال » فأحضرها وجلست الي كرسي « فوتيل » ومكثت أقلب صفحاتها برهة

فلفت نظري العنوان الآتي :

﴿ آثار الفاجعة ﴾

« أتينا أول أمس على أخبار غرق السفينة « بون فوياج » بواسطة ثلاجة هائلة وقد نجا جميع الركاب والبحارة ما عدا عشرين رجلا وثلاثة عشر سيدة وثمانية أطفال وخمسة من البحارة ، على أنه قد تحقق اليوم أنه كان بين من نزلوا الى قوارب النجاة المستر « كلايتون » وهو أحد ضباط الاسطول الكندي سابقاً ثم شاب فرنسي اسمه « رولاند أديمون » وفتاة معه اسمها « لوسي دارتوى » هذا ولم يعلم اذا كانوا ضلوا عن بقية القوارب بين الضباب المتكاثف أو ان الامواج الثائرة قد قلبت بهم القارب فاستشهدوا ضمن رفاقهم الأول »

وقفت عند هذا النبأ برهة مرت فيها على شفتي ابتسامة لم تلبث أن تلاشت بين طيات الحزن الذي ملأ قلبي لذكري ضابطنا الراحل . ثم مرت بخاطري فكرة لم أستطع الفصل فيها بسرعة وهي هل أكتب الى ادارة تحرير هذه الجريدة عن تفصيل الخبر وما تم لنا في هذه الرحلة المنكودة ، أو أهمل المسألة ، على

أني أخيرا رأيت ارجاء البت في الموضوع الى ما بعد مقابلتنا المسز كلاتيون وتسليمها رسالة قرينها

استيقظت لوسى وأقبلت على من حجرتها فرأت الصحيفة بين يدى انظر اليها بسكون على غير عادتى فاندهشت وقالت : ماذا بالصحيفة قد استفرغ منك كل هذا الاهتمام فأطلعتها على الخبر فتأوهت وقالت : يجب ان نزور اسرة الضابط اليوم أليس كذلك يارولاند ؟

أجل يالوسى وسيكون ذلك عقب خروجنا

ارتدينا ملابسنا وتناولنا طعام الافطار ثم قصدنا منزل الضابط وقد توفقنا اليه بعد سير نحو نصف ساعة من الفندق سرناها على اقدامنا خلنا فيها اننا نسير بين شوارع احدي المدن التى نقرأ عنها في أساطير الاولين وخرافات المتقدمين .

أن مدينة نيويورك مدينة عجيبة مدهشة تشاهد في شوارعها الفخمة جميع الاجناس من جميع الامم تسير في طريق واحد ، ترى على جانبيك وانت سائر بنايات هائلة ترتفع الى السماء تناطح السحب بقممها الشامخة وتدك الغبراء بأقدامها الى اغوار بعيدة فمنها مايتدرج صاعداً سبعين او ثمانين دوراً من الدور الواسعة الجميلة

وتنخفض نازلة ثمانية أو عشرة ادوار فى باطن الارض. تقف تشهد حركة احدى الشوارع فترى مايبهرك من حركة الاعمال المدهشة. تجد طرق المواصلات فوق الارض وتحتها وفوق الشوارع على جسور واعمدة تمتد عليها خطوط عريضة واجمل من هذا نظافة الشوارع التى لايحتاج معها الانسان الى تنظيف حذائه او ملابسه حتي ولوسار فيها من الصباح الى المساء ، ثم ترى العربات والسيارات سائرة امامك وبجانبك وانت لاتسمع لها صوتا لان ارض هذه الشوارع الجميلة مصنوعة من الخشب المطلى بالقار فلاتحدث ادنى حركة او ضجيج ثم ترى الناس مسرعين فى خطواتهم منهمكين فى اعمالهم وكذلك بدا لى الامريكان لاول وهلة امة غريبة مدهشة .

وصلنا المنزل وسألنا عن مسز كلاتيون فوجدناها بغرفتها وبينما كنا نصعد على السلالم كنت افكر كيف ابدأها الحديث والقى عليها خبر نهاية زوجها الحزنة على ان تفكيرى قد انقطع فجأة اذ قابلتنا السيدة على باب غرفة الاستقبال ، وهي سيدة طافة المحيا فى سن الخامسة والثلاثين تقريباً ذات قوام بديع وذات خلقة جميله حييناها فردت التحية بأحسن منها ثم دخلنا وجلسنا معاً

فبدأت الحديث وقالت : يبدو عليكما انكما قادمين من سفر طويل او رحلة بعيدة فأن آثار التعب والنصب لا تزال تظهر على وجهيكما !

• فأجبتها :

اجل ، وصلنا امس من وطننا فرنسا .. من باريس

من فرنسا نفسها ؟

نعم ، هل بها مايهمك ياسيدتى ؟

فتأوهت وقالت :

لقد كان زوجى هنالك منذ شهرين ثم ابحر الى لندن فليفربول وقد عاد بين ركاب تلك الباخرة التعيسة « بون فوياج » وما وصلت هذه النقطة حتى لم تمالك عواطفها فذرفت عيناها الدموع وقد بح صوتها وتنهدت وقالت ، واظنه قداستشهد بين الامواج فهو وأنه كان ضمن الذين ركبوا قوارب النجاة الا انه كما اذاعت اليوم صحيفة « نيويورك جورنال » اختفى مع شاب وفتاة فرنسيين ؟ ؟ وهنا توقفت لحظة وتفرست فى وجهينا ثم استطردت الحديث ولكن العبرات قد قطعته عليها . . .

وفى هذه الساعة لم تستطع « لوسى » الثبات بل ازرقت

الدموع ايضاً وبكت بكاء مراً وكذلك تحركت شفتاي عن تأوه عميق ثم انحدرت من جفني دمعة حارة كبيرة ، فاسترعى هذا المنظر منا اهتمام السيدة فقالت

هل كان لكما يا صديقي قريب او رفيق بهذه الباخرة ؟

كلا

اذن فلماذا اراكما تبكيان او هل تبكيان من أجلي ؟ يظهر أن نفسيكما تفيضان بالرحمة والعطف لذكري البؤساء المنكوبين

فأجبتها وقد رأيت أن هذه هي أحسن فرصة لاطلاعها على جلية الأمر نعم ياسيدتي لقد كنا نحن الشاب والفتاة اللذين قرأت عنهما في الصحف رفقة زوجك المحبوب وصديقنا الحميم في رحلتنا وهنا انتفضت قليلا واعتدلت في مكانها وقد وجهت الينا كل اهتمامها واصغت الينا اصغاء تاما — ولقد كان له علينا أجل فضل واسمى معاونة مما لا ننساه له أبداً أمد حياتنا وفي مماتنا ، فهو الذي أنقذ حياة صديقتي « لوسي » من الغرق وكان في انقاذها نجاة لي ايضا من الموت المحقق وبذلك كان له فضل بقائنا احياء في هذا العالم ثم سردت لها حكايتنا منذ ساعة غرق السفينة حتى وصولنا في قارب النجاة الى الشاطيء وكانت تارة تتألم وتارة تدهش في حين

آن عبراتها كانت مستمرة الانسكاب وعند نهاية حديثي أخرجت لها رسالة زوجها من جيبي مع المنديل بما فيه وما وقع نظرها على الرسالة حتى تناولتها بتلهف وفضتها في الحال ثم قرأت : —

عزيزتي مرغريت

أكتب اليك وهزات الحمى ترعش جسمي ورسول الموت يتقدم بي نحو السماء ، لقد مضى علي أكثر من اثني عشرة ساعة وأنا أعاني من شدة المرض ما أعانيه لايخفف عني ألمي غير ثقتي في الله وغير دموع رفيق اللذين كانا يواسياني ويقاسماني شدتي ، مرغريت لقد كنت اود أن أراك بجانبي في ساعتي الاخيرة ولكن حال القضاء دون ذلك فشكرا الله ان هيأ لي لوسي بجانبي تصلي من أجلي وتنتحب وتبكي علي كما هيأ لي من رولاند صديقا مخلصا يشجعني ويقوي من عزمي ويصبرني على مصابي .

آواه إني ، أراني لن أعيش حتى اكافئهما على هذا الجميل فاوصيك بهما خيرا اذا كان لك حظ في رؤيتهما وأني ادعو الله أن يصلا الى امريكا المحبوبة سالمين :

مرغريت

لقد عفوت عنك في كل ما تحسبينه انك اسأت الي فيه وعلم

الله انك لم تسيء الى في يوم من ايام حياتى فامنحينى انت عفوك ومغفرتك ونضرعى اسماء الرحمة ان تدر على بعيثها ، وانى اوصيك بابنيناه جاك ومارى ء خيراً فكونى لهما اماً وابا بدل ان كنت لهما اما فقط ، واذكري لهما دائما انى كنت احبهما حبا عظيما وانى ما آثرت فراقهما ، وانما نادانى المولي الى جواره فلبيت نداءه .

الوداع يامرغريت ، الوداع يااحب الناس الي ، انى افارق الحياة وانت آخر من افكر فيه ، وكل ما آسف عليه ، فاذكرينى دائما بالرحمة والاحسان وان اردت مخاطبتى اوحديثى فعليك بشاطيء البحر واسألى الامواج والمياه ان تلقى الى برسائلك حيث مثواى الاخير في صميم اليم حيث السكينة والخلود .

الوداع يامرغريت وآخر كلمة اقولها لك ان تتعهدى ولدينا بالشفقة وان تحسنى اليهما في حياتك خيرا ه؟

كلايتون

لم تكد مسز كلايتون ان تأتي على آخر الرسالة حتى شهقت شهقة الموت خلت ان فيها نفسها الاخير ثم تشنجت اعصابها وتاهت بين حالة اغماء شديد فأسرعت نحوها انا ولوسي وناديت الخادم ما حضر الينا بعض الماء والروائح واسعفناها وبعد ربع ساعة اخذت

تستفيق من اغمائها وكان قد اخذ منها العناء مأخذه فأشرنا عليها بأن تستريح قليلا في فراشها ثم ودعناها وخرجنا بعد ان واسيناها وعزيناها في مصابها

بعد ان خرجنا من منزل مسز كلايتون قصدنا احد المصارف فاستبدلنا منه كل ما معنا من العملة الاجنبية واستلمنا بدلها نحو ستين دولارا امريكيا عزمنا على ان نصرف منها باقتصاد تام وأن لا ننصرفها في اقل من ثلاثة اسابيع حتى نجد لنا عملا والا فتسوء حالنا متى نفذت منا النقود ولم نكن توفقنا الي عمل نرتزق منه .

لذلك كان اهم صعوبة تعترضنا الآن هي ان نجد عملا في خلال اسبوعين على الاكثر ولهذا اشارت لوسي بأن نتوجه الى ادارة احدى الصحف الشهيرة وننشر فيها اعلانا لنا فأجبتها بالرضاء والموافقة ثم قالت:

ولكن ألست تستحسن أن نقصد ادارة نيويورك جورنال فنكتب لها تفصيلا عن خبر أختفائنا الذى أشاعته اليوم تحت عنوان « آثار الفاجعه »؟ حتى اذا ما وصفنا تلك الحوادث المروعة والمشاق التى لاقيناها في رحلتنا عطفت علينا قلوب اصحاب الاعمال فيتيسر لنا بذلك ايجاد عمل في وقت قريب ! ؟

نعم ، يالوسي ، ان رأيك صواب وقد خطرت لي هذه الفكرة في الصباح على أني اجلت البت فيها الى ما بعد زيارتنا لمسز كلايتون والآن حيث انك معي عند هذا الراي فلنذهب توا قبل ان تبلغ الساعة الواحدة .

وصلنا ادارة الجريدة حيث قابلنا رئيس التحرير وهو رجل ممتلىء الجسم لطيف الحديث ولكنه كثير الكلام نوعا ما فقصصنا عليه حكايتنا وقد تأثر منها كثيرا وبدت على محياه علائم العطف والشفقة ثم طلبت اليه ان يعلن عنا بأننا في حاجة للاشتغال ببعض الاعمال وقد افهمته انى حامل لشهادة الدكتوراه في علوم الحقوق والعلوم الاقتصاديه واني اجيد اللغة الفرنسيه والانجليزيه والالمانيه وان لوسي تجيد ايضا اللغتين الاول وحامله لشهادة الليسانس في الآداب الفرنساوية ولها دراية تامة بالاشتغال على الآلة الكاتبة وفن التمريض وقد سبق لها مزاولة هذا العمل بمستشفى باريس ، وبعد ان شرحنا له كل المعلومات التي طلبها واعطيناه عنوان اقامتنا بفندق « ينوا نجلاند » عرضنا عليه ان ندفع بعض النقود مقابل الاعلان فأبي وابدى استعداده لمعاونتنا من صميم قلبه ، فشكرناه وخرجنا وكانت الساعة اذ ذاك في منتصف الواحدة تماما .

بعد ذلك قصدنا مطعما حيث تناولنا غداءنا ثم عدنا الى الفندق وفى المساء اشترينا جريدة نيويورك جورنال طبعة الساعة الثامنة مساء لان هذه الجريدة تطبع عدة مرات فى اليوم فرأينا فيها مقالا ضافيا تحت عنوان ضخم تناول فيه المحرر قصتنا كما القيناها عليه بالحرف الواحد، وفى نهاية المقال اعلان يشير الى حاجتنا للاشتغال فى بعض الاعمال ثم أطنب المحرر المدح فى كفاءتنا وقدرتنا

واستحث أصحاب الاعمال على مساعدتنا وفى الحقيقة فان المحرر قد بر بوعده لنا ، وقد راينا نفس هذا الاعلان فى اعداد الصباح جميعها فلم يبق امامنا الا ان ننتظر تلقي دعوتنا للعمل من جهة ما . . . . ؟ !

١٥

في نيويورك

مضى علينا حوالى الاسبوعين ونحن ننتظر ان تصلنا خطابات من بعض الاعمال ولكننا اسوء الحظ لم نتلق ولو دعوة لأحدنا فسبب ذلك لنا القلق وأضعف أملنا في ايجاد عمل ما وبينما كنا نفكر فى المستقبل المجهول الذى ينتظرنا والمشاق التى ستلاقينا فى الايام المقبلة بعد نفاد الفضلة الباقية من المال وقد بدأت الهواجس تحتاطنا وتصور لنا المستقبل بصورة بشعة مشوهة واذا بنا وقد جلسنا في غرفتي واواجين نتدبر فى امرنا أذطرق الباب الخادم وبيده خطاب كان معنونا باسمى فقدمه الي وفضضته واذا فيه :

المصرف الفرنسى الامريكى
نمرة ٥ شارع نيويورك

جناب المسيو رولاند ادمون

قرانا الاعلان الذي نشرته صحيفة نيو يورك جورنال باسمكم واسم صديقتكم باعداد يوم ٢٠ اغسطس الذى ابديتم فيه رغبتكم للاشتغال وحيث ان لدينا اعمالا لكما فالرجا مقابلتنا غدا الساعه العاشره صباحا لمفاوضتكم في ذلك

مدير المصرف

بويون

ما كدت افرغ من تلاوة الخطاب حتى ابتسمت ابتسامة الظفر ثم هنأت لوسى بقرب انفراج الازمة وقد لاحظت ان سحابة الكآبة التي كانت تظل وجهها منذ هنيهة قد ذهبت وفي الحقيقة فأنا قد سررنا غاية السرور لسنوح مثل هذه الفرصة لان اعمال المصارف على العموم وان تكن في غالب الاحيان معقده ومجهدة للفكر الا اني أفضلها على الاشتغال بمحل تجاري او بمكتب محاماه او غير ذلك ، وكان سروري اكثر واتم عندما وجدت ان الظروف قد هيأت لي انا ولوسى الاشتغال في مكان واحد وهذا مالم نكن نحلم به

توجهنا في الصباح الي المصرف حيث قابلنا مديره وقد اتفقنا معه على ان تشتغل لوسى على الآلة الكاتبة نظير اجر اسبوعي

يبلغ عشرة دولارات وأنا أشتغل بفرع الاوراق المالية نظير أجر اسبوعي يبلغ خمسا وعشرين دولارا وقد حررنا عقداً بذلك لمدة عام يبتدىء من أول يوليو أى فى اليوم التالى لغد اليوم الذى وقعنا فيه العقد .

الآن أصبح لدينا دخلا يبلغ ٣٥ دولارا في الاسبوع فكفلنا به لأنفسنا عيشا رضياً بل أن هذا الدخل نستطيع أن نقتصد منه خمسة عشر دولارا فى الاسبوع فلا يمضى العام الذي تعاقدنا عليه حتى يتوفر لدينا نحو ثمانمائة دولار وهو مبلغ ليس بالقليل في بلاد أمريكا نستطيع أن نستثمره وننال من ورائه أرباحا لا يستهان بها . ولقد كان البت فى أمرنا على هذا الحال من دواعى بهجتنا فقضينا طول اليوم فى غبطة كما أمضينا اليوم التالى وهو اليوم الوحيد الباقى من أيام بطالتنا في سرور وأخذنا نتم فيه جولاتنا فى شوارع المدينة ونتعرف بعجائبها ، فكان من أعجب معجزات هذه المدينة التى رأيناها فى ذلك اليوم هي جسر بروكلن .

يقف الانسان على ذلك الجسر المعلق الممتد فوق الماء فيرى المركبات والسيارات تسير في طريق واحد ويجد فوقها عربات

الترام ويبصر فوقه قطار سكة الحديد واذا نظر الى أسفل شاهد السفن الكبيرة تمخر عباب الماء ثم يجد تحت الماء أيضاً نفقاً عظيماً تسير فيه سكك الحديد ومما يدعو الى الاستغراب انه مع كثرة هذه المواصلات في المدينة فانك ترى دائماً المركبات مزدحمة بالركاب ولا فراغ فيها

أن أمة أمريكا هى الامة الوحيدة التى ترى فى بلادها روح المساواة والاخاء والعدالة قد بلغت أقصاها فالكل متساوون أمام الحاكم والرئيس والقاضى فى كل مكان ، وكذلك كانت المساواة والحرية والاخاء من مزايا هذا الشعب المختلط من جميع العالم الذى تمكن فى سنين معدودة أن يكون شعباً مستقلا بذاته وقوميته

ان الايام القلائل التى قضيتها فى نيويورك منذ وصولنا الى الشاطىء اظهرت لى كثيراً من مزايا الامريكان وعجائبهم ولهذا كانت أمتهم لدى أمة جديرة بالاكبار والاعجاب ، فهى الامة الوحيدة التى ترى افرادها جميعاً تعمل بدون استثناء ، لا تعرف منهم عاطلا لا يتكسب أو سائلا يستعطي ، الجميع يشتغل ويجد ، تسير فى

الشارع فتراهم مسرعين فى سيرهم لاتستطيع أن تكلم أحدهم لأنه لايقف ليسمع حديثك بل انه لو اصطدم بك أو صدمته فى أثناء الطريق لايقف ليعتذر اليك أو ليسمع اعتذارك اذ أنه يرى أن هذه امور فارغة مضيعة للوقت الذى هو أثمن من كل شيء

ان الامريكى وحده هو الذى يستطيع ان يفهم معنى الوقت وقيمته ، لذلك فهو لايبذل دقيقة واحدة منه ، تراه يقرأ الجرائد وهو سائر في الطريق أو راكباً عربات الترام وكم دهشنا مرة أنا ولوسى وقد دخلنا مطعما من مطاعم أهل الاعمال من رجال ونساء فوجدنا أنه ليس به خادم مابل أن من يريد أن يأكل يتقدم بنفسه فيشترى كل مايريد دفعة واحدة ثم يجلس الى مائدة ليأكله ويخدم نفسه بنفسه

وهكذا فأنك تمشى فى مدينة نيويورك فتندهش من الحركة التجارية القائمة فيها ، ترى الشعب باجمعه من نساء ورجال ، شبان وكهول يتسارعون ويركضون ساعين وراء أعمالهم الكثيرة

ان أهل نيويورك وحدهم هم الذين يعتبرون الليل كالنهار

فالاعمال سائرة باستمرار واليوم منقسم عندهم الى ٢٤ ساعة الثانية تلي الاولى وهكذا فيقولون الساعة ١٤ او ١٥ وكذلك تجدهم يستعملون ساعات سائرة بهذا النظام كما ترى فيهم ملايين العمال وقد اصبحوا يستغربون ضوء الشمس بل ويتألمون منه . لأنهم قد اعتادوا على ضوء الكهرباء ، نصف الاهالى ينامون بالليل والنصف الآخر ينام النهار كله من شروق الشمس الى غروبها وهؤلاء هم الذين يتناولون الاعمال بالليل ، لانها طبعاً تظل سائرة فى الليل كما في النهار . وكذلك تدهش ايضاً عندما تعلم ان نصف السكان يعيش تحت الارض والنصف الآخر فوقها تبعاً لنظام مساكنها واعمالها .

ان امريكا عظيمة جداً ومملوءة بالغرائب والمدهشات ، ترى فيها الصحف تطبع عدة مرات فى اليوم فمثلا تشترى صحيفة فترى انها الطبعة الثامنة أو العاشرة وكذلك فالصحافة لها نفوذ عظيم فى البلاد وجميع الشعب يقرؤها لانهم جميعاً يجيدون القراءة والكتابة وعدا ذلك فالاثمان رخيصة جداً فلا تباع أكبر صحيفة منها بأكثر من مليم واحد ومن الغريب انه يكون بها اعادة ورق قيمته اضعاف الثمن الذى تباع به

١١٧

ان الشعب الامريكي هو الامة الوحيدة التي لا تاريخ لها ، وهو الامة التي لا ماضي لها ولكنها اليوم تكون ماضياً مجيداً لمستقبلها . سيكون المثل المضروب لدى جميع شعوب العالم



١٦
الى واشنجطون

كانت الشهور القليلة الماضية التي قضيتها مع « لوسى » بمدينة نيويورك هى صحيفة مجيدة من حياة غرامنا ، هى صحيفة نقدسها ونجلها لأننا تساقينا فيها كؤوس الحب التى كان فيها شفاء لقلوبنا وتضميداً لجروح أفئدتنا الدامية منذ اعوام ، أجل انها سطر من السطور التى خطتها أيدى الآلهة على صفحة السعادة والنعيم .

فى يوم ١٠ نوفمبر . . ورد على مدير مصرفنا رسالة من فرعه بمدينة واشنجطون يطلب فيها اليه تعيين موظف ليرأس قسم الاوراق المالية وهو الذى ستخلو وظيفته فى منتصف الشهر الجارى .

طلب مدير المصرف مقابلتى فى نفس اليوم وعرض على الخطاب وقال ان ثقتى فى عملك وكفاءتك التي أبديتها لنا فى خلال

الشهور الماضية تدعوني الى اختيارك للقيام بهذه المهمة الكبيرة التي لا أحب ان يديرها غيرك واني نظير انتقالك سأوفع مرتبك الى الضعف اي الى خمسين دولاراً في الاسبوع ومع ذلك فانه يمكنك ان تعود الى عملك هنا بعد انتهاء السنة المالية الحالية اى بعد شهر ابريل القادم وان رضيت المقام هنالك بعد هذه المدة فذلك ماتوده ، هذا ماحببت أن أعرضه عليك اليوم يامسيو رولاند وأني اتمشم أن تجيب بالقبول ولو نسا عطيك مهلة للتفكير في أمرك الى الغد فان وافقت على السفر الى واشنجطون فكن على أهبة الرحيل اليها في يوم ١٤ الجارى على الاكثر .

انصرفت من حجرة المدير بعد ما أتم حديثه ثم عرضت المسالة على لوسى بعد انتهاء عملنا اليومى ونظرت اليها وقلت :

أني لا أستطيع فراقك يالوسى ولذا فانى لايسعنى الا الرفض

فاومات قليلا وقد تمشت على جبينها سحابة الحزن وقالت:

كيف ترفض الست تذكر نصوص العقد الماخوذ عليك وفيه أن المصرف الحق فى انتدابك للسفر الى أى فرع من فروعه فى خلال مدة تعاقدك وعليه أن يدفع نظير ذلك تعويض انتقال ? !

وأن كان المدير اليوم أمهلك فى التفكير فا ذلك الا كرماوأدبامنه

والا فان له الحق في تبليغك مأمورية انتدابك بأمر بات ؟

أجل ، ولكن . . .

ولكن ماذا ؟

هل نفترق ؟

اذن وما العمل ؟

احدنا يعتزل العمل ويرافق أخيه !

كلا ، يا رولاند ، انى لا أرتضى لك ولا لنفسى هذا الامر ؛ انك يوم ان وقعت على عقد العمل كنت قابلا كل نصوصه راضياً بها فوفاؤها اصبح ديناً فى ذمتك تؤديه ، او وعداً صريحاً عليك ان تفى به فهل ترتضى ذمتك ان لا تؤدى الدين او يسمح لك شرفك أن لا تفى بالوعد ؟ فى حين انك قادر على القيام به ! وفوق ذلك فمن تريد منا أن يكون عالة على أخيه فيترك عمله ؟

انى لا أنكر انى سأتألم لفراقك بل انى متألمة الآن وحزينة جداً ولكنى سوف أتحمل كل ذلك فى سبيل الواجب ، فلتتحمل أنت أكثر منى ، ولتتغلب لديك عاطفة الشرف على كل عاطفة أخرى فارجع الى نفسك يارولاند ولا تزري بوعدك

امام مدير المصرف وهو الذى يثق فيك كل هذه الثقة التي جملته يلح عليك في السفر .

اذن فماذا تقولين ؟

السفر

اذا كان هذا يرضيك فانى سأفعل .

وكذلك قد قر الرأى على سفري وفى الصباح قابلت المدير وأبلغته عما تم عليه عزمى فابتهج لقبولى وصرف لى اذناً ماليا بخمسين دولاراً مصاريف انتقال . .

في صبح يوم ١٤ نوفبر كنت أرى من بعيد منديل لوسى الابيض وهى تلوح لى به والقطار سائر نحو مدينة واشنجطون فأخذت أردد لها تحياتها بمنديلى انا الاخر حتى اختفت عن بصرى فتملكنى شعور الأسى والألم لفراقها فاستودعتها الله وتضرعت اليه ان يرعاها بعنايته ، ثم جلست فى مكانى بالقطار مهموماً كئيباً وأردت ان أسرى عن نفسى بعض آلامى فتناولت من حقيبة سفرى كتاباً تاريخياً استحضرته معى لأمضى فيه بعض اوقات فراغى واسم هذا الكتاب « اسرار الدنيا الجديدة » وهو يتناول كثيراً من اقاصيص القارة الامريكية وشيئاً من تاريخها

ويكاد يكون جميع مافيه حديثا لايتجاوز عمره الثلاثمائة او الاربعمائة عام ؛ اى منذ اكتشاف هذه البلاد اللهم الا بلاد المكسيك وبيرو فانه أتى فى تاريخها على عهد ابعد من هذا التاريخ لانه كان لهاتين المملكتين ماض مجيد وحضارة سالفة ولقد لذلى ان أقرأ كل ماكتبه المؤلف عن تاريخ هذه المدينة الغابرة ، على ان مااستلفت نظرى واستجمع لبى فى اثناء قراءتى فقرة تتناول نحو ثلاث صفحات من الكتاب من صحيفة ١٣٩ الى ١٤٢ ؛ قرات فيها عن المكسيك ماياتى .

ان البلاد التى يطلق عليها اسم المكسيك ؛ وهي تلك الهضبة المرتفعة الواسعة المساحة كانت بلادا لها تاريخ مجيد وعظمة قديمة فقد كانت البلاد الوحيدة ذات المدنية فى قارة امريكا الشمالية وكانت مدنيتها تشبه مدنية القدماء المصريين اصحاب مدنيات العالم الاولى ، يدل على ذلك مبانيهم الفخمة وآثار معابدهم وكتاباتهم التاريخيه ونقوشهم التى تشبه الكتابة الهيرو غليفيه

وليس بغريب على هذه البلاد التى هي أغنى بلاد معدنية فى العالم بعد الولايات المتحدة أن تكون فيما سلف قد بلغت من الحضاره شأوا عظيما ، فهى لا تزال تستخرج من مناجمها حتى

اليوم معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والفحم والزئبق ..

ولقد كانت هذه البلاد عند اكتشاف الدنيا الجديدة ذات شهرة عظيمة رن صداها فى آذان الاسبانيين الذين كانوا بجزائر كوبا اذ ذاك وقد بلغهم أنه يوجد فى اواسط البلاد الامريكية مملكة فيها من الذهب والفضة مالا يدخل تحت حصر فسيروا اليها فى عام ١٥١٩م حملة صغيرة افتتحها بقيادة «كورتيز» مؤلفة من نحو خمسمائة رجل وستة عشر فارسا فذعر اهالى المكسيك من مدافع الاسبانيين وخيولهم التى لم يكونوا يعرفوها من قبل وكذلك استولى الاسبانيون على البلاد بدون مقاومة .

وقد كان يحكم المكسيك فى ذلك الوقت ملك اسمه «منتزوما» من قبيلة تدعى «الازانقة» وكان ذو جاه عظيم وثروة طائلة فلما تحقق من وقوع هزيمته ووقوع بلاده تحت نير العدو المهاجم جمع نفائس قصره ومملكته وأمواله وجواهره وهى تقدر بالملايين من الجنيهات وخبأها فى احد المعابد الخفية على أمل حفظها للمستقبل ولكنه لم يلبث ان سقط بين قبضة الاعداء فنكلوا به وقتلوه شر قتلة ، على أن هذه النفائس والاموال العظيمة لم يعثر عليها بعد

والمعروف أن سرها كان عند رئيس كهنة الملك وبعض القسس وهم كانوا جميعا من عبدة الشمس وكانوا مخلصين منتهى الاخلاص للملك فلم يبوحوا بسر دفائنهم مع ما نالهم من التعذيب المر على أنهم يؤكدون الآن أن هذه التحف والمخبآت لا تزال باقية في المكان الذي أخفيت فيه ويقولون ان المعبد او الهيكل المزعوم ان به هذه الاموال هو فى نقطة متوسطة بين خرائب تلك الاطلال التي يراها السائح الآن حول مدينة مكسيكو وهى مؤسسة على انقاض عاصمة مملكة الازتيك القديمة اى مملكة الازانقة ، ولقد كان يدور بخلد بعض الاثريين فكرة التنقيب عن هذا الكنز العظيم ولكن لم يتقدم احد بعد لاخراج هذه الفكرة الجميلة الى حيز الوجود ولا ينقص الباحث فى هذه الاطلال غير المال ثم الصبر والاناة »

قرات هذه الفقر وقد شعرت انها نالت مني اهتماما يذكر فاخذت افكر في صحة وجود مثل هذه الاثار الغالية والكنوز الثمينة وقد تاقت نفسي الى الوقوف على اسرار هذه الخفايا الغامضة على ان بصري لم يلبث أن وقع على الجملة الاخيرة وهي ولا ينقص الباحث

فطويت الكتاب ووضعته في حقيبتي لأن المشروع قد اصبح طبعاً خارج مقدرتي مادمت عديم المال

ثم وقفت اطل من النافذة على حقول الغلال الواسعة التي كانت على جانبي الخط الحديدي ومراعي الماشية الناضرة حيث كانت تمرح فيها الماشية والسائمة . . .

وكان القطار قد وصل اذ ذاك الى محطة فيلادلفيا وهي مدينة جميلة ذات مناظر خلابة وخاصة مناظر تلك الشلالات القريبة منها والواقعة عند ملتقى نهر سكوكيل بنهر دلور

ولقد ساعدتها مرافئها الجميلة على ان تصبح ثغراً عظيما ومدينة صناعية هائلة ، تشمخ من وسطها مداخن عالية تلبد الجو بسحب كثيفة من الدخان .

وكانت اهم مدينة مر بها القطار بعد فلادلفيا قبل وصولنا واشنجطون هي ثغر بلتيمور وهو ذلك الثغر الجميل الذي يبدو لي من ازدحام سكانه وكثرتهم انه مركز تجاري عظيم .

ولم يمض زمن طويل حتى سمعنا القطار يرسل بصفيره اصوات التحية الى عاصمة البلاد وقد اخذ يخفف سيره قليلا

قليلا فأخذ المسافرون يحزمون جرائدهم وكتبهم التي كانت بأيديهم ويتهيأون للنزول وكذلك وصلت واشمجعلون وكان الجو منعشا ...

❀❀❀ ❀❀❀

١٧

الرسائل

مدينة واشنجطون مدينة جميلة ليست لها شهرة خاصة غير انها العاصمة السياسية للبلاد الامريكية ، لذا يؤمها كثير من كبار الولايات واشرافها ، لذا ترى على جوانب شوارعها الكبيرة المتسعة مبان ضخمة وعمارات هائلة تسترعى بصرك من بينها الدار البيضاء حيث مركز رياسة الولايات المتحده ثم دار الكابتيول حيث يجتمع مجلس الشيوخ والنواب

ولقد عشت فى هذه المدينة فى الستة شهور التى قضيتها بها عيشة هادئة ناعمة ولم يكن يقلق راحتى فى غضون هذه المدة غير ذكرى رفيقتى لوسى وشوقى لرؤيتها الذى كاد يفتت كبدي الحرى بحبها ، ولم يكن يخفف عنى بعض هذا الالم غير الرسائل التي كنا نتبادلها من حين الى حين فكنت اقرؤها مراراً حتى ليخال لمن يري رسالة منها انها سطرت منذ اعوام فهى بالية عتيقة مضت

عليها السنين والاحقاب ، وانه لمن دواعى الاسف ان يسبب تكرار تلاوة هذه الرسائل القيمة محو كثير من سطورها مما يحول بينى وبين اثباتها فى هذه المذكرات بين الرسائل التالية



١

من رولاند الى لوسى

عزيزتى لوسى

وصلت امس الى مدينة واشنجطون وما كان اشغلنى عن بهائها وحسنها لأن ما بنفسى من ألم افراقك قد شغلني عن كل شيء سواك آه ، تبا للانسان ما أظلمه ؛ فقد ظلمت نفسى أن رضخت لقولك فى السفر وخضعت لسلطان غرامك فى قبول النأى عنك ولو كنت أدرى ما سأعانيه من الألم المبرح والشوق القاتل لرؤيتك لكان لى شأن آخر اليوم ، حقا يا لوسى أنك لو تعلمين أى نار ترعى قلبى اليوم وأي لهيب يتقد بأحشائى الساعة لكنت أشفقت علي ولما أشرت علي بالرحيل ، آواه ، ما أقسى الايام وما أشد آلام الفراق !

سأقضي هذه الليلة وحيداكما قضيت التي قبلها وليس لي سلوى او عزاء غير التفكير فيك مرة او النظر الى رسمك الجميل مرة أخرى ، أني أرى الساعات طويلة مملة وكأنها لا تتقدم وانما هي تتأخر لتزيد في شقائي وتعبث براحتي ، بودي لو أمضي كل وقتي في الكتابة اليك ، اذ لست أجد وأنا بعيد عنك لذة أحلى من التفكير فيك والتمتع بمناجاتك والتسامر الى طيفك ، والاصغاء الى دقات قلبي وهي تردد اسمك وتتغنى بغرامك ، أجل يالوسي أنك تملأين حولي كل شيء ، يهب علي النسيم العليل فأحسبه أنفاسك العطرة وأنظر الى الازهار فأخالها تبتسم اليك ، ثم أرى أضواء الشمس فتذكرني بأنوار وجهك الساطعة وأمر بالجداول فاذكر قطرات دموعي الجارية وكذلك فأنت تتمثلين لي في كل ما يحوطني من مناظر الطبيعة الخلابه .

ماذا عساني أن أقول غير أني احبك يالوسي وأني اتنفس الصعداء كلما مرت بي ساعة فامحو بها سطرا من صفحة فراقنا الذي أراه طويلا مملا ، فهل صليت من أجلنا يالوسي ودعوت الله أن يقرب من أيام لقائنا لأن دعواتك طاهره فهي تنفذ الى السماء لانهـا صوت من وحي الله ونغمة من نغمات الملائكة .

كم أنا أريد أن أكتب لك ولكن القلم يهوى من بين أناملي عاجزا ضعيفا لا يستطيع أن يجد من بين ألفاظ اللغة ما يقضي لبانته فأن رأيت يالوسي أن رسالتي اليوم تافهة فأني استميحك عذرا في ضعفي وابثك تحيات قلبي النابض باسمك حتى الموت .

رولاند

٢

من لوسي الى رولاند

عزيزي رولاند

ما كان امرها تلك الليلة الماضية وما كان اقساها تلك الجمرات النارية التي كانت تلهب جسمي اينما تقلبت...

تقول في رسالتك اني ظلمتك بالاشارة عليك بالسفر وعلم الله اني ما ظلمت غير نفسي وما قسوت الا على قلبي ولكنها هي آلام الحب فلنتقبلها راضين في سبيله

اني لا اتصور ولا يمكني ان اتصور ان قلبا من القلوب او

نفسا من النفوس تستطيع ان تعاني من الآلام ماعانيته لفراقك وما كنت احسبني قادرة على ذلك لولا اني علمت ان الحب هو الذي وهبني تلك القوة فما اعظم الحب من سلطان قدير يقوي الضعيف ويوهن القوي ! !

لست ادري ماذا اكتب لك وانا لدي الشيء الكثير ، فما اكثر ما في النفس وما اقل الالفاظ التي تعبر عما يخالج الفؤاد من عواطف الغرام وآلام الوجد . اني كلما امسكت القلم ونشرت القرطاس رأيت انامل تتراخى ولا اعد استطيع ان اخط سطرا واحدا لاني اجدني منجذبة بتيار خفي مشتغلة به ذلك هو تيار الحب

ما اعظم الحب يا رولاند : اليس هو الذي يعلمنا تلك الفضائل السامية .

اليس هو منبع الرحمة والعفة والصدق والوفاء ؟ اليس هو مصدر الأناة والصبر ، ورقة العواطف ونبل الاخلاق : حقا انه عظيم ويعلمنا عظائم الامور التي ترفعنا فوق هذا المستوى البشري وكذلك نرى المحبين والمغرمين دائما ملحقين بعالم الوحي والملائكة لأن الحب هو غرس قلوب الملائكة الطاهرة ونبات نفوسهم الزكية .

رولاند ، ادع الله معي ان يجعل لنا من حبنا الطاهر وحيا

تسمو به نفوسنا ونصل به الي سماء الكمال
ثم سلامي اليك مع كل شمس طالعة وبدر شارق م ؟
لوسى

من رولاند الي لوسى

عزيزتي

أتستطيعين يالوسى ان تصوري حال صديقك رولاند ؟ انه امسى شابا تعيسا قد تلاعبت به يد الارزاء وطافت به سفينة النأى والفراق حول عالم الهموم والآلام من اقصاه الي اقصاه حتى اترعته من شرابه الشيء الكثير لقد امسى منكودا مشتت الافكار مضطرب الفؤاد لا يفتح عينيه ولا يغمض جفنيه حتى يرى شبح ماضيه وحاضره ماثلا بين يديه يروعه خوفا وينذره بالاتعس مستقبله

انها القسوة ، انه الظلم ، فويل للأيام وتبا للدهر ونقمة اسوء الحظ : اهكذا تعامل القلوب الطاهرة وعلى هذا المنوال يكون شأنها في الحياة ؟؟

كيف لا أراك يالوسى شهرين كاملين ؟ وكيف سابقى مثلها وأكثر منهما وأنا لا أراك ؟ كنت أحسب أن صفحة آلامى الماضية فى باريس هى أقصى مايمر بالانسان من العذاب ولكنى رأيت أن السطر الاخير الذى أضمه اليها هو أشد سطورها أسى ونكداً ، شهرين ثم شهرين أضيفها الى أمثالها من الاعوام السابقة ؟ ؟

فهل لقلبي أن يطيق صبراً بعد ؟

أجل يالوسى تلك حالى ولا يخففها عنى غير أنى أعتقد أنى مقيم هنا فى سبيل رضائك وبراً بوعدى اليك .

آه يالوسى . كم أعزم أن أكتب اليك فأشكو الحب والغرام وأصفه بالظلم والاستبداد ولكنى أعودفأحاسب نفسى وأردها عن غايتها !

أليس استبداد الحب وعبوديته هي نفس السيادة والشرف لاننا نشعر دائما بلذة ساحرة هى أوقع فى النفس من نغمات الاوتار وأي لذة أعظم من أن يجد الحبيب نفسه بجانب حبيبته يسبح فى سماء الغرام على أجنحة نورانية شفافة نسيجها من جم المحبة وعظيم الاخلاص احقاً فالحب وحده هو سر هذه الحياة فهى

بدونه معدومة لاقيمة لها ، وكل شيء نعانيه من ألم مبرح وأفكار مضطربة وعواطف ثائرة وانفعالات شديدة فهو جميعه لذيذ مادام الحب مسيطرا عليه .

أتعلمين يالوسى كيف أترقب ورود البريد ، إنه كما يترقب عباد الشمس شروقها ، وكما يترقب المريض ساعة شفائه ، فهل أشفقت بهذا القلب الذائب والنفس المتفانية فتمديها بماء الحياة من رسائلك وتداوى سقمها وعللها من الفاظك وعذب كلماتك ؟

رولاند

٤

من لوسى الى رولاند

حبيبي رولاند

أرأيت شكوى فؤادى الذى سطرها بدماء القلب على وجه الشمس الغاربة هذا المساء لتصعد بها الى الملأ الأعلى تتضرع اليه وتتوسل أن تقصر من مدى فراقنا وتحين من ساعة لقائنا ؟ ؛

لقد خدعت نفسى يوم أن أشرت عليك بالسفر ولقد

حسبت أن لدى قوة العزيمة والصبر على تحمل الالام مايدفع عنى كل هذا الشقاء الذى أرزح تحت اعبائه هذه الأيام ، فلما رحلت وجدتنى بعدك فتاة ضعيفة بائسة ليس لها من القوة التي تصورتها غير صبابة نفذت منذ الساعة الاولى !

أتذكر يارولاند مقعدك فى « الصالون » أنى أجلس في كل مساء وأقرأ فى صحيفة نيويورك جورنال فأتخيل أنك جالس بجانبي تسمعنى وتصغي الى حديثي فأنظر نحوك فأنتفض أنتفاضة مؤلمة اذ أرانى وحدي أقرأ لنفسى وأن مقعدك خالياً بجانبي فالقى عليه نظرة أسى واعلم أنى كنت واهمة فيما تخيلت وأن تلك كانت أياما مضت ولم يبق منها غير أثرها .

أتذكر ذلك السوار الذى أهديته لى يوم الاعتراف؟ انى أنظر اليه فى كل صباح فأقرأ فيه صفحات الماضى ، أقرأ تلك الكلمات العذبة التي سبيت بها نفسى ، أقرأ فيها نجوى قلبك ونجوى فؤادي فأنظر اليها ساعة طويلة ثم اردها الى مكانها تشيعها انة من الالم وحسرة على تلك الايام الهنيئة التى قضيناها فى باريس ترفرف فوقنا اجنحة الحب والغرام وتظللنا سماء الهناء والسعادة :

اجل ، ان الحب الذى يتغلل في هذا القلب يوماً بعد يوم

ليس عرضاً وقتياً وانما هو جوهر في النفس وعنصر من عناصرها قد امتزج بها من نشأتها فهيهات انفصاله عنها

آه يارولاند ، كم ارى الايام طويلة والساعات لا تمر ، انى انتظر بفارغ الصبر كتابك الذى تنبئنى فيه بمودتك الى ، فمتى يصل هذا الكتاب ومتى تعود ؟

لوسى

٥

من لوسى الى رولاند

ملاكى الصغير

الى متى نبقى فى سجن آلامنا ؟ والى متى تفرق بيننا الايام ؟

آه يارولاند ، ان قلبي الفائض بالغرام وفؤادى الطافح بحبك لم يعد يقوى على اخماد تلك العاطفة النارية التى تلهب مهجتى شوقاً لرؤياك ووجداً للقياك

عزيزى

أن الاشقياء في الدنيا كثيرون ولكنهم يتفاوتون فى شقائهم

كما تتفاوت السعداء فى مراتب نعائهم على ان اشد هذه الفئة شقاء ذلك الانسان الذي يملك بين جنبيه نفساً ابية لا ترتضى الضيم وتأبي الضعف فهو كلما داهمته عاصفة بأسائه يستقبلها بجنان ثابت ونفس هادئة ويجترع من كؤوس الألم ما الله عالم به حيث يودعها قرارة نفسه ويغلق من دونها باب الصمت والكتمان فتظل جذوة الم متقدة في احشائه يقاسى بين شدتها تارة وخفتها تارة اخرى من غصص الهم ومساوىء الحياة مالا ينزل عند طاقة انسان ... ؟

ذلك مثلي ياورولاند فى هذه الأيام ولكن آواه ، لم اعد اقوى على الكتمان فلقد طفح الكيل وغلى المرجل ونفذت جعبة الصبر وصارت النفس والهة والمهجة واجدة والحشاشة ذائبة والكبد محترقة

انى اصلى ياورولاند اناء الليل واطراف النهار واتوسل الى الله ان يقضى من ايام فرقتنا ويطفىء من نيران شوقنا وسعير وجدنا الذى أنحل القلب واضنى النفس : :

فهل تجيب السماء الدعاء ؟؟

وانى فى النهاية اقرئك السلام الي حين اللقاء لوسى

٦

من دولاند الى لوسى

عزيزتى لوسى

بشراك فقد أجيبت توسلاتك وتحققت دعواتك وكذلك شاء الله أن لا يرد ضراعتك لانها صادرة من قلب وفى طاهر ،

لقد ورد على صباح هذا اليوم رسالة من مدير المصرف العام ينبئنى فيها باعطائى الحق فى العودة الى نيويورك اذا شئت ذلك ابتداء من أول مايو القادم .

ياله من خبر سار طارت له نفسى فرحا وتشمع له فؤادى بهجة وسرورا وياله من يوم مقدس ستظل ذكراه خالدة فى القلب ذلك هو اليوم الذى سأتمتع برؤياك فيه يالوسى !

آه ما احلى هذه الساعة التي أسطر اليك فيها هذه البشرى وأجلها ، أنها الساعة الوحيدة التى ذقت فيها حلاوة الكتابة ، كيف لا وأنا احببتك حبا جعلنى أحب فيه كل شىء من أجلك حتى

شقائى وآلامي ، انه ليخيل الى أنى أرى كل شىء بجانبك أجمل منه في اي مكان آخر ، أليست السماء التى تظللك هى اجمل من التى اراها هنا ، والشمس التى تشرق على وجهك هى أبهى منها فى أي مكان آخر .

انك يالوسى بهجة هذه الحياة والزهرة اليانعة التى أراد الله أن يحلى بها جيد هذا الكون ، وأنك أنت الجمال الذى يضىء على وجوه الحسان فيمنحهم حسنهم ، وأنت الوحي الذي يلهم المحبين والمغرمين .

أحبك يالوسى ، حبا ما حمله قلب انسان لامرأة ، بل حب العابد لمعبوده ، لاأستطيع أن أصبر على رؤياك أو التفكير فيك لحظة واحدة فالى الملتقى الى اليوم المقدس ، الى اول مايو

رولاند

١٨

الحظ

في صباح يوم ٢٤ مايو اى بعد عودتى من مدينة واشنجطون بينما كنت أعد فى محفظة اوراق قبل ذهابي الى المصرف واذا بى اسمع ورائي صوت عدو سريع فالتفت فاذا بلوسي هى القادمة وبيدها صحيفة الصباح وتتنازع وجهها علامات البهجة والسرور والعجب والاندهاش ، فسألتها :

ماذا قرأت ؟ وما بالك مضطربة كذلك ؟

فأجابتني بتلعثم : اقرأ ، مامعنى هذا؟ ؟

فتناولت الصحيفة من يدها واشد مادهشت وسررت ايضاً عند ما قرات في قمة العمود الأخير من الصحيفة الرابعة ما يلى:

سندات شركة قناة بنما

ارباح اقتراع هذا العام

ربح السند الأول نمرة ٨٣٧ من سندات شركة بنما فى اقتراع

هذا العام مبلغ مائة الف دولار وهو كما علمنا ملك المسيو رولاند
ادمون الموظف بالمصرف الفرنسي الامريكي بنيويورك وقد بحث
كل من السندات الآتيه نمرها مبلغ خمسة آلاف دولار وهي :
٥٢٦ ، ٦١٢ ، ٩٥٣ ، ١٣٨١ ، . . . الخ

لم ابلغ من القراءة الى هذا الحد حتى صحت ياللحظ ، بشراك
يالوسي وما اسعدني بك ؟ ثم اطبقت الدهشة شفاهنا اذ ذاك
فجلسنا صامتين الى المكتب الذى امامنا واخذ كل منا ينظر
الى اخيه باستغراب وبعد قليل تحركت لوسي في مقعدها ثم
خاطبتني قائلة :

لم يسبق لك يارولاند ان اخبرتني عن شرائك لهذا السند فمن
اين لك به ؟

معذرة يا صديقتي العزيزة ، لقد نسيت ان اكتب لك عن
شرائي هذا السند في رسائلي الماضية ولما عدت الي نيويورك
انستني رؤياك كل شيء حتى هذا : : واما حكاية هذا السند فلقد
حدث يوما بينما كنت في عملي بالمصرف بواشنجطن ان تقدم الي
شيخ كهل تدل سيماه على رغد عيشه وحسن حاله وقدم الي ورقة
كبيرة حسبتها احدى اسهم المصرف ولكني لما اطلعت عليها

وجدتها انها سند من سندات شركة بها وكان قد اشتراها منذ عام ن
وسافر الى استراليا ثم عاد هذا العام فحضر للمصرف ليستفهم عما
تم في امر هذا السند الذى اشتراه بمائتي دولار على امل انه قد يربح
مبلغاً مافي اقتراع الشركة وفعلا فأنى تناولت منه السند واخذت
ابحث عن نمرة سنده بين النمر الرابحة في العامين السالفين وكم كان
عجبي عظيما عندما وجدت ان سنده ضمن خمسين سنداً آخر
ربح كل منها عشرة آلاف دولار وان مبلغ هذا الشيخ محفوظ
باسمه في خزينة المصرف ؛ فهنأته بربحه فشكرني وقد اخذ السرور
منه مأخذا كاد يمحو معه تجاعيد وجهه التي شكلته بها الاعوام
الطويلة . وبعد ذلك انصرف الشيخ من امامي لمقابلة مدير المصرف
لاستلام المبلغ ولم اره بعد

على ان اثر هذه الحادثة لم يبرح مخيلتي واستمرت تتحسن
في خيالي فكرة شراء احدى هذه السندات يوما بعد يوم ، املي
اكون من الرابحين أيضا ، وفعلا عندما نضجت الفكرة وتم
مجموع ماأدخرته مائتي دولار ـ وأنت تعلمين أني كنت اذ ذاك
أتقاضى خمسين دولار في الاسبوع ـ بادرت بشراء هذا السند
في آواخر ديسمبر الماضى ، ولكن يالاحظ فلقد ربح هذا السند

عشرين ضعفا مثل التى دفعها سند الشيخ : فشكروا المولى وحمدنا لفضله ، ثم أنه كان السند الاول فى الاقتراع، وكنت أنت يالوسى اول من بشرنى بهذا الربح الكبير :

ألست تعتقدين أذن يالوسى أن كل من يأتى بلاد أمريكا لابد ان يصبح ثريا : ؟

ها، ها. ها. أظن حتى ولو عن طريق اليانصيب ه ؟.

نعم هو كذلك .

وهنا دقت ساعة الحائط الثامنة ونصف فلم يكن يبقى عن موعد ابتداء عمل المصرف غير نصف ساعة ولذلك فقد اسرعنا الى الخروج وارجأنا التفكير فيما نتبعه الى ما بعد عودتنا من العمل: وصلت المصرف وكان الخبر قد انتشر بين موظفيه وعماله واصدقائى ومعارفى فأخذوا يأتون الى يهنئوني ويبدون نحوى عواطف السرور والابتهاج ..

ثم عدنا الي المنزل فجاست الي لوسى وقالت .

ماذا عزمت عليه أخيرا يارولاند ، هل لا نعود الى فرنسا المحبوبة بعد ؟

ولماذا التعجيل

انك الآن قد تحصلت على رأس مال ليس بالقليل كما أنه لديك من الشهادات ما يخول لك العمل فى المحاماة والقضاء وغير ذلك فيمكنك ان تحصل عن طريق هذه المهنة من الثروة والشهره مالا يتيسر لك مثله فى غير بلادنا المحبوبة التي نشأنا فيها وتربينا بين أهلها وعلاوة على ذلك فأنه قد أصبح من السهل لدينا أن نقوم بحفلة زفافنا ، فهل لاتجد من الصواب ان نعود الي وطننا ،

انا سنعود الى بلادنا ولكنى ارى ان الوقت لم يحن بعد واني اشعر انه سينالنا من هذه البلاد خيرا كثر مما اصبناه فلننتظر قليلا انرى ماذا يكون من امرنا

فتململت وقالت يجب ان لا نسير وراء الشعور والعواطف والتنبئات التى لا تجد بنا نفعا بل هى مضيعة لزمننا فقط وان زمنا تقضيه هنا كموظف فى احد المصارف كفيل بأن يكون لك عند الاشتغال بالمحاماة او القضاء في بلادك مركزا ادبيا لا يستهان به؟

هذا صواب ولكن هل ترميني المودة الي فرنسا قبل مضى بقية العام الذى تعاقدنا عليه مع المصرف ؟

لا ، انه لم يبق غير خمسة اسابيع فيجدر بنا ان ننتظرها برا بتعاقدنا ثم نرحل

حسنا علينا اذن ان ندع مسألة الرحيل الآن حتى تمضى الخمسة اسابيع ولنفكر فى شىء آخر قريب .

وماذا تعنى بهذا القريب ؟

مرت بخاطرى فكرة فى الصباح عند ماجلست الى المكتب اقص عليك حكاية السند وقد صممت على شراء هدية ثمينة اقدمها تذكارا لأول صفقة من الربح والثروة التى اكتسبناها فى امريكا

فابتسمت لوسى ثم ارخت طرفها نحو الارض وقالت .

ماذا تقصد بهذه الهدية هل هي « هدية الزواج » .

كلا ياعزيزتى لوسى انى اطمع فى ان تكون قيمة هدية الزواج اضعاف قيمة المائة الف دولار التى ربحناها اليوم . . اما هذه الهدية لا غير تذكار بشرائك لي اليوم بربح هذا المبلغ . فماذا تفضلين ان تكون هذه الهدية اطلبي ما شئت حتى ولو تقاضى هذا المبلغ كله . .

شكراً لك يارولاند ما اكرمك . ولكن اذا كنت مصمما على احضار هذه الهديه فدعنى افكر قليلا وان اجملك تغير من مشيئتك . .

فابتهجت وقلت فكرى ما شئت وانى مسرور ان اجدك

عند رغبتي .

سكتت هنيهة ثم نظرت الي وقالت

رولاند انهم قالوا اذا أعسرت ثم ايسرت فتذكر من اسدى اليك معروفا وواساك بخير فقدم اليه بمثل ما منحك واحسن اليه المكافاة وانت كما تعلم ان المستر كلا يتون رفيقنا الضابط في رحلتنا الشاقة قد اسدى الي جميلا اراني لن استطيع الوفاء به وذلك انه انتشلني من الموت عند غرق السفينة وهذه الحسنة لن انساها طول حياتي واني ادعو لهذا الضابط بالرحمة في كل صلواتي ولما كنا لا نستطيع مجازاة هذا الشجاع بعد موته حتى ولو بجزء مما قدمه الينا من المعاونة فاني تذكرت الآن اسرته التعيسة وقد انقطعت اخبارها عنا هذه المدة الطويلة واخاف ان يكون مسها شر او اصابها عوز واني لذلك فكرت ان اتبرع بقيمة الهدية التي تريد ان تقدمها الي لشراء هدية اقدمها او ادفع القيمة مساعدة لاسرة هذا الضابط المنكود لعلنا نكون بذلك قد قدمنا اليه في شخص اسرته بعد مماته جزءا من دينه عندنا ذلك ما اقر عليه رأيي وهذا ما اخترته من انواع الهدايا

ما أطيب قلبك يا لوسي وما أحفظك للجميل وما أحسن

اختيارك لانواع الهدايا الخالدة ! وانى اوضاء لرغبتك السامية سأقدم اليك مبلغ خمسة آلاف دولار لهذا الغرض ، فهل ذلك المبلغ يكفى لادراك بغيتك ؟ ؟

انه مبلغ وافر يارولاند دليل اعزازك لى ولرغبتى فشكراً لك ياصديق — واني أراني أيضاً يالوسى مدين لهذا الضابط بدين أكبر من دينك ذلك هو انه أنقذ حياتك وحياتى معاً اذ كان في نجاتك من الغرق نجاة لى أيضاً من الموت المحقق لاني ما كنت أرتضى لنفسى البقاء بعدك ساعة واحدة بل انى كنت سأظل بجانبك على سطح السفينة حتى نغرق معاً ، ولهذا فانى أقدم مبلغ خمسة آلاف دولار أخري لشراء هدية باسمى لأسرة الضابط — وقد شعرت ان كلامى أحدث في نفسها تأثيراً ظاهراً فاستسلمت لتصوراتها لحظة شملنا فيها سكون عميق ثم تكلمت فقالت :

لقد كنت يارولاند أكثر مني طيبة واخلاصاً لهذا الضابط وأحسن منه اخلاصك نحوي ومحبتك لى فما أسعدنى بك وأهنأنى بحبك !

ولكن ماذا ترى أن نقدم من الهدايا ؟

اني أظن أن للضابط ابنا وفتاة ؟

نعم هو كذلك ،

لذلك أرى أن نشترى بهذا المبلغ أسهماً من شركة بما نقدمها باسمي ابنى الضابط فانى أظن أن ذلك أكبر فائدة لهما من أى شيء آخر فهذه الأسهم علاوة عن ارتفاع قيمتها يوماً بعد يوم فانهما قد يصيبان منها ربحاً مثل الذى حصلنا عليه وفوق هذا فان مبلغ عشرة آلاف دولار فى بلاد امريكا الغنية التى يتضاعف فيها الدولار الواحد فى أوجز مدة هى رأس مال كاف لفتى وفتاة لم يتجاوزا من العمر عشرة أعوام ولا يلبثا ان تتكون لهما ثروة كبيرة عند بلوغهما سن الرشد .

ابتهجت لوسي وقالت ، هذه فكرة حسنة وجميلة جداً ، ولكن متى تفعل ذلك ؟

سنشترى الأسهم غداً ثم نزور مسز كلايتون بعد غد

ذلك أفضل

وبهذا فاننا صممنا على زيارة اسرة الضابط بعد يومين ، : ،

١٩
الكوخ

اشترينا الاسهم ولما كنا لم نر مسز كلايتون منذ زيارتنا لها في اليوم الثاني لوصولنا مدينة نيويورك فاننا طبعاً قصدنا المنزل الذي قابلناها فيه منذ احد عشر شهراً ، فركبنا عربة في منتصف الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم فوقفت بنا بعد نحو نصف ساعة امام باب المنزل المذكور فقابلنا الحارس (البواب) عند الباب فسألناه عن مسز كلايتون فدهشنا عند ما أجابنا انها باعت هذا المنزل ورحلت مع ابنيها منذ شهر الى احدى ضواحي نيويورك .

فسألته ، ألست تعلم سبب بيعها المنزل ورحيلها منه ؟

يظهر ياسيدي ان حالتها المالية قد تزعزعت أركانها فرأت في بقائها في هذا المكان تكاليف باهظة لمعيشتها لا تستطيع القيام بها وخصوصا بعد وفاة بعلها !

وكيف حدث ذلك ؟

ان قرينها ياسيدى قد تركها مستغرقة بالديون فعلى أثر تحقق خبر غرقه انهال عليها الدائنون من كل جانب ولم تكن تملك اذ ذاك غير هذا المنزل الذى كانت تؤجر طبقتين منه وتسكن فى الطبقة الثالثة ثم المعاش القليل الذى كان يتقاضاه زوجها من الحكومة بعد اعتزاله الاعمال ، لذلك اضطرت الى بيع المنزل حتى أمكنها الوفاء بالدين .

حسنا ، ولكن هل تعرف اين تسكن الآن بالضبط

لا ياسيدي ، ولكن استطيع ان اقابلكم بأحد اصدقائها وكان مستأجراً الطبقة العليا من قبل ولا يزال بها حتى الآن واسمه المستر ماكس ، فهو يمكنه ان يدلكم على مكانها بالضبط

اذن خذ بطاقتى هذه وقدمها اليه ونحن في انتظارك

عاد « البواب » ومعه شاب فى مقتبل العمر وهو انجليزى الاصل حسن الهندام والزى فتقدم نحونا وحيانا ثم قال

هل يريد سيدى خدمة ؟

شكراً وانما نود ان نزور مسز كلايتون وقد علمنا انك صديق لها فهل تسمح ياسيدى ان تهدينا الى مكان اقامتها

فنكون لك من الشاكرين

ها هو عنوانها، وعلى كل حال فأنا مستعد لمرافقتكما اليها اذا احببتما ذلك:

تفضل على الرحب والسعة.

ثم ركبنا العربة نحن الثلاثة واخذ رفيقنا ماكس يرشد السائق الى المكان المقصود، مضت بنا نحو نصف ساعة ونحن سائرون بين شوارع المدينة المزدحمة ومبانيها الفخمة ثم انتقلنا الى العراء حيث الاشجار الضخمة والمياه الجارية التي تشق الخضرة عن جانبيها وكان من بين المناظر البديعة مناظر القوارب الصغيرة وقلاعها وهي تطفو من فوق مياه الجداول والخلجان الكثيرة عن شواطيء نيويورك

استمر بنا المسير حتى اشرفت علينا التلال المجاورة وقد اخذت تتدرج على سفوحها الخضراوات الناضرة تتخللها بعض الاكواخ الجميلة التي اكتست بالنباتات المتسلقة فأكسبتها حسنا وبهاء.

كان من بين هذه الاكواخ كوخ ذا شكل غريب يجذب الانظار لاناقة صنعه وجمال خضرته فالتفتت نحوه لوسي

وخاطبتني قائلة :

انظر الي ذلك الكوخ ما أبهاه ؟

اجل ، انه جميل فلقد ألبسته الطبيعة من جمالها ثوبا قشيبا فهاهى الخضرة تعانقه وتلتف حوله من كل جانب بما فيها من ازهار باسمة واشجار باسقة ، وهاهى المياه الفضية تتثنى بين منعطفاتها وتتلاطم برمالها الضحلة وصخورها الناتئة وتلك الطيور تسبح بين الفضاء فى سمائها ترسل اليه نغماتها الشجية وقد ابتهجت بأشعة الشمس التى اسبلت على الارض ثوب البهاء والجمال . . .

ولم أتم اطنابي بجمال هذا الكوخ حتى صاح بى رفيقنا ماكس وقال :—

يالله ، ما اكثر ماتغرر بنا المظاهر الكاذبة وتضلل بأبصارنا تلك القشور البراقة الزاهية التى تسدل على الحقيقة ثوبا من الرياء والتمويه ؟

انك لو عرفت هؤلاء الذين يأويهم هذا الكوخ الذى يتراءى لك جميلا وتحسب ان اهله سعداء به لعرفت حقيقة اشقى واتعس جماعة في هذا الكون بأجمعه ، لوعرفتهم لعرفت

احق الناس بالرحمة والشفقة لا بالغبطة والحسد

وهنا اردت مقاطعته ولكنه استمر في اندفاعه فسكت—

أنظر تجد بين جدران هذا الكوخ أما حزينة قد ناءت بما تحمل على كاهلها من أنواع الهموم والاسقام، أنظر تجد شبابها الغض قد توارى بين ثنايا التعاسة وأحضان البؤس، وهاهم أبناؤها ترام حولها، يتأوه أحدهم كأنه شعر بعصاب أسرته الأليم فبكى أسى وحزنا ويبتسم الآخر ويهزأ كأنه يسخر بهذا العالم وما فيه من مظاهر كاذبة وبهذه الدنيا وما أقامت للناس من شرك البلايا وحبال الخداع وما شادت لهم من صروح البؤس والتعاسة.

وهنا تمتمت لوسى وقالت:

أيه لك أيها الدهر الخئون مابالك وهؤلاء المساكين ترهقهم بشديد عقابك وبليغ ارزائك. فبالله ابتعد عنهم بنكباتك وهون عليهم مصائبك فعاد ماكس الى حديثه وقال:

أجل ياسيدتي، لقد أمسوا أيتاماً ضعفاء، لاعون لهم ولا نصير فلقد نكبوا في أبيهم أعز معين لهم، ففقدوا به عماد حياتهم ومصدر سعادتهم، خسروا به كل ثروتهم ومالهم فأمسوا مشلولي الايدي والاجنحة يلتمسون رحمة الله ومعونته فأنه لتأبي

نفوسهم الزكية أن تستجدى رحمة غير رحمته مهما كلفهم ذلك من بؤس الحياة ونكبات الدهر ، تلك حالهم فانظر وتمهل قليلا ففي ثنايا اعطافهم حكمة وعظة لقوم يتفكرون

مابالى بهم فكأنهم عندما يتجرعون الشراب كمن يتجرع السم ليتخلص من هذه الحيـاة حتى يطرح عن عاتقه كل متاعبها وثقالها وشرورها

آواه ، انك لو رأيتهم اذا ما أسدل عليهم الليل ستاره لرأيت قوماً سكنوا الى الاواجم والاسقام فيظلم فى وجوههم المكان ويزيده وحشة ظلام الليل فيفترشون فراشهم تعلوهم غبرة وتتصعد من أنفاسهم نيران حامية وزفرات محرقة تدمع لها العيون وتحزن الافئدة ، وهاهي حسراتهم المميتة وتأوهاتهم المتوالية التى تدمي القلوب الجامدة وتذيب الافئدة الصخرية تصعد الى أطباق الجو صارخة شاكية ، فيالها من أسرة بائسة قد كال لها الدهر من أنواع الشقاء والآلام ماتتقوض تحته الجبال الرواسى وتندك له الارض

إنى لأخال هـذه الازهار الحمراء الاقد تخضبت من دماء تلك القلوب الحسيرة التى تتفتت حزنا وهما لما نزل بها من القدر المحتوم !

وما هذه المياه الجارية الا دموع تلك الفتية التعيسة التي تتدفق بين كل حين وآخر

أليس نغم هذه الطيور الشجية الا بكاء وأنينا رحمة وشفقة لما يلاقيه أهل هذا الكوخ الذى يرفرفون حوله ويحلقون فوقه ،

وما كانت الشمس ترسل اشعتها صفراء شاحبة الا كمدا وحسرة مما يعانيه أشقياء هذا العالم وضحاياه التى تفيض لها القلوب رحمة وتجزع لها النفوس ألماً وحزنا

حقيقة مرة ياسيدي رولاند وما يغرنك ماتراه من المظاهر الكاذبة التى تبدو لك من ثنايا هذه الغلائل الرقيقة التى هى فى الحقيقة ثياب البؤس والشقاء ثم لايخدعنك تلك البهجة الوقتية التى قد تراها على وجوه مثل هؤلاء البؤساء فانها تسدل وراءها حزنا عميقاً يوشك أن يذيب قلبا قد قرحته جروح الاحزان وأدمته مصائب الزمان فبات كسيراً لايخفف من ألمه او يروح من همه الا سيول الدموع تذرفها العيون ساعة لاتلبث أن تنقضى ثم يطفح به الالم ويسكن الى الحزن الابدى .

وما بلغ ماكس الى هذا الحد من حديثه حتي كنا مقابل هذا الكوخ الذي كنا نتحدث عنه طول هذه المدة . وما كان أشد

عجبنا عندما امر ماكس الحوذى ان يوقف العربة امامه

هل تعرفون كوخ من هذا يارفاقى ؟؟

طبعاً ، لا

انه الكوخ الذى تسكنه المرأة التي أنتم في السؤال عنها أى مسز كلايتون وما نطق بجملته حتى سالت دمعة حارة من عينى «لوسي» اسى وحزنا لما اصاب هذه الأسرة من الشقاء

تقدمنا نحو الكوخ فاستقبلنا عند بابه امرأة خلناها غير التى عرفناها من قبل فلقد طحنتها الامراض وانتابتها الاسقام فذبلت زهرة حياتها وحانت شمسها الى الغروب. عرفتنا ولما نعرفها ولكن كان من نغمة صوتها تثبيتاً لشخصيتها فحيتها وما اقتربت منها ، لوسي ، حتى تعانقا بشدة ثم سألتها فقلت : كيف حالك وحال ابنائك يامسز كلايتون . انى اود من صميم فؤادى ان تكونوا جميعاً متمتعين بصحة جيده

شكراً لك ياسيدى رولاند فأننا جميعاً لله الحمد بخير

تقدمت امامنا السيدة ودخلنا من ورائها باب الكوخ ثم قدمت الينا ثلاثة مقاعد فجلسنا عليها واخذنا نتحادث فى بعض الشئون وكان الكوخ انيقاً فى شكله وداخله يدل على حسن

التنسيق والذوق وكان فيه حاجزان او ثلاثة (برافانات) تقسمه الى ثلاثة اجزاء هي بمثابة ثلاث حجر طبعاً وقد كان الاثاث بسيطاً ولكنه كان جميلا

جلست السيدة امامنا وكان الحزن باديا على محياها وقد مكثنا برهة صامتين لاتنبس ببنت شفه ولم نكن نسمع اذ ذاك غير رنة الملاعق في فناجين الشاي التي قدمتها الينا وقتئذ مسز كلايتون ومن بين هذا السكون العميق والالم الذى سرى في نفوسنا خلت انى اسمع خفقان قلب مسز كلايتون كأن وجودنا عندها بعد ان اصبحت على هذا الحال قد احدث لها المآ وحزنا ، لذلك تكلمت وقد زودت نفسي بشيء من الجرأة وعدم الكلفة فقلت .

اني اراك ياسيدتي تكتمين بين جنبيك هما مؤلما ، هل تسمحين ان تكشفي لنا عنه لعلنا نستطيع ان نشاركك فيه او نخفف منه قليلا ؟

شكرا لك ياصديقي وانما هي ذكرى زوجي كلايتون قد عاودتني الآن فهاجت لي هذا الحزن ؟

اجل ياسيدتي ولكن يجدر بك ان لاتدعي للحزن سبيلا

الى نفسك فذلك لن يجديك نفعاً وانما يجب ان تتعهدى نفسك بالبهجة والسرور لتسعدى ولديك بجانبك وتحبى اليهما الحياة وتقوى فيهما الثقة بالمستقبل

آواه ، يارولاند ، اني لا استطيع ان اتصور كيف اراد بنا الدهر هذا العذاب الذى يجرعنا من مرارته كل ساعة ؟ لقد حاولت ان انسى الماضى وانسى معه احزانى وآلامى ولكن من يمكنه ان ينسى راضيا الشخص الذى احله فى حياته من قلبه مكانة لا مرتقع بعده وقد اعزه اعزاز النفس لذاتها

مسز كلايتون ؛ هونى من امرك وخففى من حزنك والله يلهمك الصبر والسلوان ، ويغدق عليك غيث رحمته ورضوانه ، سيدتى ان المرحوم زوجك قد فارق الحياة واني اعتقد ان روحه قابلتها السماء بالبشر والبهجة لانها كانت روحا مطبوعة على الاحسان والخير

مات قرينك وهو يدينا ديناً كبيراً اعترفت الك به عند مقابلتنا الاولى بنيويورك وهو دين عظيم لم نستطع ايفاءه اليه فى الحياة لان الايام لم تمهله طويلا ، بل واننا لن نستطيع حتى مماتنا ان نؤدى اليكم منه ولو جزءاً بسيطاً ، ذلك الدين الذى لا يمكننى انه

أعادله بأي قيمة فى هذا العالم هو انقاذ حياة لوسى وحياتى معا
لأنه كان فى حمله لوسى بين يديه وقفزه بها الى قارب النجاة
خلاص لها ولى ايضا لانه لوكان أصابها أذى وقد كان محققا اذ ذاك
لكنت اليوم شريكها بطبيعة الحال ولكان قاع اليم هو مثوانا الاخير
لأنى ما كنت ارتضى لنفسى الحياة بعدها فأتركها وحدها على ظهر
السفينة الغارقة وأنجو أنا بنفسى ذلك كان محال . محال جدا . .
ان هذا الدين الذى أرانى عاجزاً عن ايفاء حتى ولو جزء منه اسأل
الله ان يجزى المستر كلايتون عنى خيراً فى حياته الاخيرة ويتغمده
برحمته ورضوانه

على أن نفس لوسى ونفسى حدثتنا اليوم أن أجرؤ فأسألك
أن تقبلى هى هديه لابنك جاك ومثلها من « لوسى » لكريمتك
مارى وأرجو أن لا تعتبريهما غير تذكارين منا فقط لزيارتنا بلاد
أمريكا الجميلة لأننا قد عزمنا على العودة الى وطننا فرنسا بعد أيام
قلائل ، فهل لك ياسيدتى أن تمنحينا هذا الشرف العظيم بقبولك
هاتين الهديتين ؟

أنى أريد منك كلمة بالقبول ؟

تململت وقالت أن ولدى جاك ومارى يشكران لكما هذه

العاطفه الجميلة نحوهما وهما لا يسألانكما غير أن تديما لهما صداقتكما ومودتكما فهى مؤنتهم فى الحياة :

شكرتها واخذت الح عليها في طلبي وقد عاونتنى لويس من جانب وماكس من جانب آخر واخيرا بعد تردد طويل قبلت مسز كلايتون الهديتين وهنا تقدمت نحو جاك وكذلك فعلت لويس وكان الشقيقان حاضران داخل الكوخ فناولنا كل منهما أيصالا باسمه على البنك الفرنسى الامريكى بنيويورك بمبلغ خمسة الاف دولار قيمة عشرين سهما من أسهم قناة بنما :

فشكر لنا الوالدان هذه الهدايا وكما أطنبت مسز كلايتون فى الثناء علينا وقد اكبرتنا أى أكبار وكذلك فعل ماكس الذى لم يكن يتوقع ان تبلغ قيمة الهديتين هذا المبلغ الباهظ فأطلق لسانه فى الثناء علينا وشكر لنا عملنا الحميد . ثم مكثنا برهة وجيزة بعد ذلك وودعناها هى ووليها وأنصرفنا مع رفيقنا ماكس من حيث جئنا ..

٢٠

الرحله

انقضى علينا عام كامل بالبلاد الامريكية ولقد رأيت من رغبة «لوسى» الشديدة فى العودة الى فرنسا المحبوبة ما جعلني أرضخ لارادتها التي لم أكن اقوى على اغضابها اوممارضتهاوفوق ذلك فقد كانت نفسى ذات رغبة شديده الى الاسراع فى عقد قراننا وانجاز حفلة زفافنا التى قررنا أن لاتكون بغير أرض الوطن العزيز حتى اذا ما أنهينا من ذلك استطعنا أن ننظم حلقة سعادتنا المستقبلة الابدية . ولذلك فقد اتفقنا نهائيا على العودة الى اوربا ولكن بعد رحلة نطوف بها انحاء الولايات الامريكية حتى لا نكون كمن ورد الماء وعاد منه ظمآنا . . ؟ !

وقد وضعنا برنامجا لرحلتنا التي عزمنا على بدئهامن منتصف شهر يوليو الجارى يتلخص فيما يأتي : —

نبدأ من رحلتنا من مدينة نيويورك فدينة فلادلفيا فثغر

بالتيمور ثم الى واشنجطون عاصمة البلاد ثم تخترق مقاطعة فرجينا
وتمر بمدينة رتشمند فمدينة ماكن بمقاطعة كارولنيا الجنوبية ثم الى
منتجمرى الواقعة على احدى الانهار الصغيرة بمقاطعة الباما ثم الى
مبيل على نفس النهر وبعد ذلك نصل الى مدينة نيوا ورليانز على
مصب نهر المسيسبي وناخذ منها الخط الحديدى الباسفيكى الجنوبى
الذى يسير موازيا لساحل خليج المكسيك حتى مدينة هوستن
ونستمر حتي نصل مدينة سيوفورد التى يتفرع منها خط حديدي
الى مدينة مكسيكو ثم يستمر الخط حتى يلتقى بمدينة الباسو
الواقعة على نهر ريوجراند الذي يكون الحد الفاصل بين بلاد
المكسيك والولايات المتحدة ثم نمر بمقاطعة اروزونه وهى جبلية
السطح حيث نعبر نهر كاورادو الذى يسير بين سهل ناضر وسط
جنات غناء وبساتين يانعة تحف جانبيه جبال ليست مرتفعة
كثيراً ثم نصل الى مدينة لوس انجلوس التى على ساحل المحيط
الهادى فمدينة سان فرنسسكو بمقاطعة كالفورنيا والتى هى العاصمة
التجارية على شاطيء المحيط الهادى وتربطها خطوط حديديه بجميع
اطراف الولايات المتحدة كما ترتبط بثغور المحيط الهادى والمحيط
الاطلسى بخطوط للسفن التجارية التى تنقل المحاصيل المختلفة

ثم تتم رحلتنا بأن نأخذ الخط الحديدى من سان فرنسسكو فمدينة سكرمنتو فأجدن فأماها فشيكاغو حيث نطوف طوفة قصيرة عند البحيرات الخمس ونشاهد شلالات نياجرا قريباً من بحيرة ايرى ثم نزور مدينة بفلو ربة مدن البحيرات ومنها نعود الى نيويورك من حيث نبحر بأول باخرة الى ارض فرنسا المحبوبة

ذلك هو برنامج الرحلة الذى وضعناه والذى راق لنظر لوسى الى درجة كبيرة وكان المزمع ان تأخذ منا هذه الرحلة الطويلة نحو شهرين او شهرين ونصف تقريباً حتى نستطيع فيها ان نري كل ما يحتاج السائح ان يراه فى هذه البلاد العجيبة الغريبة ، ولقد خصصنا لهذه الرحلة جميع النقود التى ادخرناها من عملنا بالمصرف وتبلغ نحو الالف ومائتى دولار .

* * *

فى صباح يوم ١٥ يوليه كنا على تمام الاستعداد للسفر اذ تحرك بنا القطار فى منتصف الساعة الثامنة من مدينة نيويورك قاصداً واشنجطون .

كان هذا الجزء من رحلتنا معروفا لدي فلقد سبق ان مررت به عند سفرى الى واشنجطون فى مدة انتدابى فى فرع المصرف الموجود هناك فأخذت أحدث لوسى عنه طول الطريق وأذكر لها الاسماء والاوصاف والمعلومات وغير ذلك مما يتوق الى معرفته السائح فى بلاد غريبة عنه ، وبينما كنت اسرد لها معلوماتى عن هـذه الجهات انتفضت انتفاضة خفيفـة شعرت بهـا لوسى فقالت :

مالى أراك هذه اللحظة كأن شيئاً آلمك اوكأنك تذكرت امراً ذو بال ؟ !

نعم ، ان ما جعلنى أضطرب الآن هو انى فى نفس هـذا المكان الذى تجدين القطار سائرا فيه حدثت لى مسألة بسيطة فى أثناء سفرى الاول الى واشنجطون وكانت فى مبدئها ذات أهمية عندى حتى تملكت على كل افكاري وتصوراتى ولكنى أهملتها بعد بضعة دقائق من حدوثها اذ وجدت نفسى قاصراً عن تحقيق تلك الأمنية التى عرضت لى ولقد أثارت لى رؤيا هـذا المكان ذكرى هذه المسألة

وتفصيل الخبر هو انى كنت اقرأ فى كتاب تاريخي بينما

كان القطار سائراً واسم هذا الكتاب « اسرار الدنيا الجديدة »
وأظنه لدى الآن في حقيبتي ثم فتحتها فوجدته وقلبت صفحاته
حتى وصلت الى صحيفة ١٣٧ . . . حيث قرأت لها :

(ان البلاد التي يطلق عليها الآن اسم « المكسيك » . . . .
الى آخر ما في العبارة . . . ولا ينقص الباحث في هذه الاطلال
غير المال ثم الصبر والأناة)

كنت أقرأ باهتمام وقد لاحظت أيضاً ان لوسى أصغت
الى بشغف كبير فما انتهيت من القراءة حتى قالت :

ان هذا مدهش ولكن أتظن ان مثل هذا الكنز يوجد
ويمكن العثور عليه ؟

اني أظن ذلك بل أعتقد أنه صحيح والا فان المؤلف لم يأت
بهذا عبثاً وانما عن أصل ومع ذلك فالمعروف ان ما يوجد باطلال
مكسيكو من الآثار لم يكتشف جميعه بعد وعلاوة على ذلك
فكلنا يسلم ان الملك « منتزوما » كان أعظم ملك حكم بلاد
المكسيك ومع ذلك فاننا لم نر له من الآثار ما يوازى هذه
العظمة التي ينسبونها اليه فلابد وان تكون تحفه ومقتنياته وآثاره
لا تزال دفينة المخابىء والاغوار .

وما الذى كنت تفكر فيه ياورولاند من قبل ؟

كنت اريد ان احوز شرف اكتشاف هذا الكنز العظيم !

ولكن !

ولكن ماذا ؟

ولكن لا ينقص الباحث غير المال وهو ماحال دون تحقيق أمنيتى فى ذلك الحين !

وأما الآن ؟

الآن لدينا من المال مايكفينا للقيام بهذا المشروع الجليل الذى قد نصيب منه فى آن واحد ثروة طائلة وشهرة خالدة ! ؟

هذا صحيح ولكن ألست ترى فى هذا العمل مخاطرة قد تضيع منا جزءا كبيراً من المال بلا جدوى ؟

كلا ، ان قلبى يشعر ويعتقد تماماً ان هذا الكنز موجود ولقد صممت نهائياً على انفاذ هذا المشروع فهل ترين بأساً من ذلك ؟

أما المشروع فلا استطيع ان أنكر انه ذو بال وجدير بالاهتمام ولكنى أخاف الفشل ؟ !

لا ، يالوسى ، فلتطمئنى وثقى بفوزنا فان نفسى تحدثنى بأننا

ستنجح وما عليك الا ان تمديني بروحك القوية السامية . . .

لك كل معونة مني يا رولاند فهل تنوي القيام بهذا العمل ؟

في هذه الايام

عين الوقت ؟

اني أرى انه عندما نصل في رحلتنا الى مدينة سيوفورد نأخذ منها السكة الحديدية الاهلية الى مدينة مكسيكو عاصمة هذه البلاد وحيث توجد هذه الاطلال العتيقة ونباشر السعي توا في التماس أمر من مصلحة الآثار بالبحث والتنقيب حتي اذا ما انتهينا من مهمتنا وعثرنا على شيء عدنا الى اتمام رحلتنا حسب برنامجنا الاول ثم نرحل الى فرنسا

هذا جميل جداً .

قضينا يومين بمدينة واشنجطون شاهدت فيهما لوسي مناظر العاصمة الامريكية ومبانيها ودور حكومتها وغير ذلك ثم استأنفنا سفرنا في اليوم الثالث قاصدين سيوفورد فمكسيكو

أخذ القطار يخترق مقاطعة فرجينا وهي ولاية زراعية خصبة ، حيث كانت مزارع القمح والحبوب المختلفة تمتد على طول الطريق كما تمتد في الجانب الآخر مزارع الطباق وكانت

أهم المدن التى مررنا بها في هذه المقاطعة هى مدينة رقشمند وهى عاصمة الولاية وبها معامل هائلة لطباق ولفائف السجائر ، ثم أخذ الخط الحديدى ينساب بين سهول المحيط الاطلسى وخليج المكسيك ونهر المسيسبي وهى جميعها أقاليم زراعية فرأينا مزارع الارز لأول مرة حول مدينة ماكن بولاية كارولنيا الجنوبية ثم مزارع القطن الجزرى التى هى أجود أنواع قطن أمريكا وفي هذه الجهات لاحظنا أيضاً لاول مرة كثرة العبيد بين سكان هذه الولاية التي انتقلنا منها الى أشهر ولايات الخليج بالزراعة والصناعة وتلك هى ولاية الباما التى تفوق جميع الولايات الجنوبية بثروتها المعدنية ويظهر انها مثل كارولينا غالبية سكانها من الجنس الاسود ، وأشهر ما مررنا به فيها من المدن هما مدينتا منتجمرى وممبيل والاخيرة هى عاصمة الولايات التجارية وثغرهم للقطن حيث ينسج بها وكلا المدينتين واقعتين على نهر صغير يعبره الخط الحديدي الى مدينة نيواورليانز التى تقع عند مبدأ الخط الحديدى الباسفيكى وتسمى هذه المدينة ايضا باسم « الهلال » وهي اهم ميناء لتصدير القطن ، وقد امضينا بها نحو يوم وفى المساء ركبنا القطار الى مدينة هوستن ومنها وصلنا الى مدينة سيوفورد فى اليوم

التالى ثم عبرنا نهر ريو جراند حيث اصبحنا داخل حدود البلاد المكسيكية فأخذنا الخط الحديدى الاهلى الى مدينة مكسيكو فمررنا بمدينتى تشيواهوا ولردو ثم الى العاصمة وكان قد مضى على قيامنا من نيويورك نحو اسبوع كامل

وصلنا مدينة مكسيكو قبيل الظهر فقصدنا توّاً احد فنادقها الشهيرة وبعد أن استرحنا قليلا من عناء السفر قضينا بضعة ساعات فى التجول فى انحاء المدينة ومشاهدة شوارعها وأهلها وهى مدينة ذات موقع جميل وجو معتدل وتضارع كثيرا من كبريات المدن في العالم

وفي صباح اليوم التالى قصدنا أطلال المدينة حيث فحصناها فحصا تاما ثم عدنا الى مصلحة الآثار فقدمت طلباً للتصريح لى بالتنقيب فى تلك الاطلال وقد حصلت على وعد من الادارة المختصة بتلقى رد منها على هذا الطلب فى خلال اسبوع .

انتظرت بفروغ صبر مضى هذا الاسبوع وقد تمكنت فى خلاله من أعادة فحص تلك الاطلال التي هى عبارة عن خرائب مرتفعة تكون أكواماً عالية تبرز منها أعمدة ضخمة وجدران هائلة تدل على عظمتها الغابرة ومجدها السالف ؛ ولقد استلفت بصرى

نقوش هذه الاعمدة التى تدل على مهارة صناعها وحذقهم كما استرعى نظرى أيضاً بعض نقوش اخرى تشبه كثيراً نقوش لغة المصريين القدماء أى اللغة الهروغليفية وقد فهمت من بين رموزها انها بعض كتاباتهم ،

انقضى الاسبوع وعدت ثانية الى مصلحة الآثار ولحسن الحظ وجدت أن الطلب قبل وان المسألة موقوفة على كتابة العقد واثبات شخصيتى لدى حكومة المكسيك للتثبت من أمرى وايجاد ضمان كاف بذلك وكان هذا امراً ميسورا لدي فلقد قدمت اليهم شهاداتى المدرسية من جامعة باريس ثم اوراق الباسبورتات وغيرها وسحبت شهادة بالتلغراف من مدير المصرف الامريكى الفرنسوى بنيويورك تثبت توظفى به فى العام الماضى ، فلما قدمت كل هذه الاوراق واكتفوا بصحتها اتممت كتابة العقد بينى وبين مصلحة الآثار وأهم مواده ان لى حق ملكية نصف ما أجده من الآثار والكنوز واذا أبت الحكومة تسليمه فعليها أن تدفع لى تعويضاً ماليا بقيمة ماتمتنع عن تسليمه وبعد تمام العقد خول لى حق البحث والتنقيب فى جميع اطلال المدينة بدون أى معارضة وبمصاريف على حسابى دون مسئولية الحكومة فى دفع شيء ما

٣١

بين الاطلال

في مثل اليوم التالى من الاسبوع الذى حصلت فيه من حكومة المكسيك على تصريح الحفر والتنقيب فى اطلال مدينة الازتيك القديمة بدأت اعمال البحث وقد استأجرت من العمال أكثر من ثلاثين عاملا ، وأبتدأنا عملنا فى وسط هذه الاطلال تماماً كما وصف لنا الكتاب التاريخي موقع هذا الكنز واستمر مدى هذه العملية الشاقة اكثر من ثلاثة اسابيع حتى كدنا نشق الاطلال شطرين ومع ذلك لم تظهر لنا أية علامة عن وجود أى أثر ولذلك انحرفنا قليلا فى الحفر نحو جهة الغرب وقد عللت نفسى بأنه قد يكون قدماء المكسيك كانوا يبنون مقابرهم جهة الغرب حيث تغيب الشمس معبودهم الاعظم ، ولقد ابلغت العمال أيضاً الى خمسين عاملا واخذنا نباشر الحفر في دائرة قطرها عشرين متراً وبعد نحو عشرة ايام لاحظنا على عمق عشرة أمتار أثر طريق كان

مرصوفاً بالاحجار الصغيرة فاشتدت عزيمتي اذ ذاك وقويت في
نفسي روح الأمل على اني احترت في اتجاه الحفر فلقد كان الطريق
متجهاً نحو الشرق والغرب ولذلك قسمت فرقة العمال الي قسمين
جعلت ثلثها جهة الشرق والثلثين الباقيين جهة الغرب ومكثنا
كذلك بضعة أيام حتى انقطع منا أثر الجهة الشرقية فأهملناها
وحولنا قوتنا جميعاً نحو الغرب فظل العمل سائراً بنشاط وشدة
مدة أخذ فيها الطريق يسير نحو الجهة الغربية الجنوبية وكان قد
مضى بنا اذ ذاك نحواً من ستة اسابيع ونحن على هذا المنوال
واستمرت عملية الحفر تصعب في الايام الاخيرة قليلا قليلا لصلابة
الارض وتراكم كثير من قطع الصخور الضخمة واخيراً بعد مضي
اسبوع آخر رأينا الطريق ينحدر شيئاً فشيئاً وظل كذلك نحو
اثني عشر متراً عثرنا في نهايتها على قطعة مستطيلة من الحجر تبينّاها
فتحققنا انها احدى درجات سلم صخري وفي غضون يومين اخذت
تبدو الدرجات الواحدة بعد الاخرى حتى بلغت احدى وعشرين
درجة انتهت عند دهليز واسع تظلله صخرة جبلية هائلة وما كان
اشد عجبنا واعظم بهجتنا انا ولوسي عندما رأينا في طرف هذا الدهليز
من الجهة اليسرى باباً خفياً من طراز ابواب المعابد والهياكل القديمة

هنا صحت صيحة الفرح والانتصار وقد اخذ منا العجب والذهول مأخذه واقتربنا من الباب وبواسطة الرموز القليلة التي استطعت حلها علمت انه هيكل لأسرة الازانقة الملوكية

في ذلك اليوم صرفت جميع العمال ولم أبق منهم غير خمسة وقد منحت كلا منهم دولارين زيادة عما يستحق من الاجر ، ثم ارسلت في طلب نجار ماهر من المدينة وبعد نحو ساعة جاء النجار ومعه عدده وادواته وظللنا نعالج باب الهيكل زهاء ثلاث ساعات بكل دقة وحذر حتي نحافظ على شكله الاصلي وبعد هذه المحاولة الطويلة انفتح الباب واندفع الهواء الفاسد يخرج من الداخل على انى لم اكن اطيق صبراً على الوقوف فأسرعت بالدخول واذا بى اراني وسط صالة سداسية الشكل تلتف حولها ستة حجر ذات ابواب فخمة ولم اكد ارفع بصرى الي الجدران حتى بهرتني النقوش ذات الالوان الزاهية البديعة التي تضيء ارجاء الحوائط بلمعاتها ، على اني لم اجد داخل هذه الصالة شيئا يذكر من الآثار اللهم الا بضع قطع من القماش البالية معلقة على الجدران وعليها بعض الرسوم التي محت معالمها الايام

نظرت نحو لوسى في ذلك الحين فرأيتها تصور دهليز الهيكل

وأبواب الغرف بآلة تصويرها التى كانت تحملها معها منذ الساعة التى عثرنا فيها فى خلال الايام الفائتة على الاحدى وعشرين درجة التى انتهت بنا الى هذا الهيكل وكذلك فقد قامت لوسى بخدمة جليلة جدا وهى تصوير جميع ماعثرنا عليه من الآثار .

قضينا بقية اليوم فى معالجة فتح ابواب الغرف الستة ونظرنا الى ما فى داخلها من الآثار نظرة سطحية فقد كانت اضواء الشمس قد اخذت تتلون بلون الشفق الجميل فعدنا الى المنزل بعد ان عززنا حراسة المكان بقوة عسكرية كبيرة طلبتها من بوليس العاصمة .

وفى مساء هذا اليوم ارسلت دعوة بمعرفة مصلحة الآثار لنحو خمسين مدعواً من الاعيان والوزراء وكبار رجال الحكومة من القناصل وممثلى الدول ومكاتبى الصحف وغيرهم لحضور حفلة افتتاح الهيكل افتتاحا رسميا وقد حددنا الموعد في الساعة التاسعة من صباح يوم ٥ اكتوبر وبذلك لم يبق عنه غير يوم واحد .

لا تسألنى كم كان سرورى انا ولوسى فى ذلك المساء وكم شيدنا من قصور الآمال والاحلام اللذيذة العذبة .

اننا سنصبح يالوسى من كبار أغنياء العالم ولن يمض يوم

حتى نصبح مالكين لملايين الجنيهات وقناطير الذهب

نعم ، ما اسعدنا يارولاند ، فلقد ذقنا من مرارة العذاب ومشاق السفر والتشريد الشيء الكثير وكذلك يجزي الله الصابرين .

ألست تعتقدين ان الحب الطاهر هو الذى ساقنا الى كل تلك الثروة وهو الذى سيرفع بنا أيضا الى أعلى قمم الفخر والشهرة فى أنحاء المعمورة وعما قريب ستبلغ هذه الشهرة واهلنا ومواطنينا فى أرض فرنسا المحبوبة فتملأ نفوسهم الكبرياء بنا ويملون الرأس فخرا بمجدنا

أجل ، ما أصدق قولك يارولاند فى رسالتك الأولى لى بباريس من ان الحب عظيم وعمله عظيم ، يحبب الى النفوس الرفعة والعظمة . .

ابتسمت وقلت ألا ترين أن ثروتنا وعظمتنا وشهرتنا ستفوق ماحازه والدك الكونت فى سنى عمره الطويلة ، وأن رولاند الذى كان يعتبره أبوك انه ذلك الشاب المعدم الفقير الخامل سيصبح أو اصبح ذلك الثرى الشهير الذى ستحفظ اسمه افراد الملايين العديدة من سكان هذه الدنيا ، والذى سيخلد التاريخ ذكر

أعماله المجيدة فى اطلال المكسيك ، أليست هذه هى جميع الآمال الكبار والأمانى الحسان التي حدثتك عنها والتى قلت انها كانت علاً نفسى ؟! ألا ترين يالوسى أن الله من علينا بتحقيقها وأننا بعد قليل سنصير أسعد مخلوقين فى هذا العالم ؟ .

ذلك حق يارولاند ، ودعنا نتضرع الى الله أن يتم علينا نعمته وسعادتنا فدعونا الله ثم ذهبنا الى فراشنا فنمنا نوما هادئا حتى الصباح واستمرينا طول اليوم التالى نعد فى معدات حفلة الافتتاح

٢٢

الكنز

في منتصف الساعة العاشرة تماماً من صباح يوم ١٥ اكتوبر كان جميع المدعوين لحفلة الافتتاح الرسمية قد حضروا يتقدمهم ولى عهد البلاد فاستأذنتهم ثم تقدمت نحو باب الهيكل وفتحته على مصراعيه فدخلوا الى دهليز الحجر حيث جذبت أنظارهم النقوش البديعة التي فوق الجدران .

تقدمنا الى الحجرة الأولى من جهة اليمين وفتحناها فرأينا فيها تابوت الملك وعلى رأس هذا التابوت تمثال من الصخر متوسط الحجم وهو يشبه كثيراً في ملامحه الصور التي لدينا للملك (منتزوما) الذى اكتشفت هذه البلاد في عهده على يد الاسبانيين .

لم يكن في هذه الحجرة غير هذا التمثال والتابوت وهو الذى فحصناه فوجدناه فارغاً فعرفنا من ذلك أن الملك كان أعد هذا التابوت لنفسه قبل موته فلما وقع في قبضة الاسبان وقتلوه لم يدفن طبعاً به ، ولم يكن على جدران هذه الحجرة أيضاً من

الرسوم والنقوش غير صورة قرص الشمس وأشعة الشفق الاحمر حوله وهي منقوشة على الجدار الغربي

أنتقلنا الى الحجرة المجاورة فرأينا في وسطها قطعة صخرية منحوتة وقائمة على أربعة أرجل تشبه الأسد وفي سطح هذه القطعة جزء أجوف مثبت في نهاية تمثال صغير يشير بيده نحو الجهة الشرقية حيث كانت صورة الشمس المشرقة تشع بأضوائها الذهبية وقد عرفنا من وجود هذه القطعة الصخرية أن هذه الغرفة كانت خاصة بتقديم القرابين والذبائح للمعبود الاعظم ، ثم وجدنا بضعة أواني فخارية جميلة الصنع تشهد على حذق المكسيكيون أو اهل الازتيك في هذا الفن ، وكان أبدع هذه الاواني اربعة اواني على شكل تماثيل على صورة أنسان أحدب تماثل كثيرا الحدب من أهل امريكا وأوربا ، على ان اثمن هذه الاواني جميعها كانت آنية مصنوعة من الزمرد يبرز في اعلاها رأس رجل ركبتاه مطويتان بحيث ان فم الآنية يكون حدبة الرجل في أعلى ظهره لم اكد افتتح الحجرة الثالثة حتى بهرت أبصارنا بلمعان ذهبي ساطع يضيء من جوانب الغرفة حتى تخيلنا أننا نرتد الى الوراء وكان منظرها في ذلك الحين مغايرا وأكثر بهاء من منظرها عندما فتحتها لاول

مرة اول امس — تقدمت الى الأمام فاذا بقدمى تطأ من تحتها
طبقة لينة ، ورأيت حولى ثلاث تماثيل ذهبية قامة كل منها نحو متر
واحد وكان التمثالان اللذان فى الجهة الغربية والبحرية متماثلان
وهما يصوران الملك واقفا بيده صولجان وأما الثالث فكان يمثل الملك
وهو جالس على عرشه فكان هذا التمثال هو ابدع ما رأته العين وأما
الجهة الشرقية فقد كان يبرز منها بناء على شكل محراب صغير ومن
هنا علمنا أن هذه الحجرة كانت خاصة بعبادة الملك وأما الطبقة اللينة
التى كانت تغطي الارض فكانت نسيجا كثيفا من القطن ذا وبرة سميكة
على شكل بساط مما نراه اليوم ولكنه اقل اتقانا وصنعا. وكان لونه
اصفر ذهبيا كلون اضواء الشمس ويدور حول هذا البساط إطار
من الجلد يقرب من نصف متر ، ثم رأينا فوق هذا البساط متكأين
مصنوعين من خشب الكايلي المغطى بطبقة من الذهب المطروق
ومنقوش فوقها بعض نقوش واشكال دينية غريبة كما وجدنا ايضا
تحت احد هذين المتكأين صندوقا جميلا مزخرفا غاية فى الاتقان
ولشد ما دهشنا عندما فتحناه فوجدنا به جمجمتين احدهما حقيقية
أى أصلها جمجمة بشرية ومرصعة بالحجارة الكريمة وقد فهمت لاول
وهلة انها جمجمة أحد عظماء الازتيك حفظوها كحرز عندهم وهى

عادة قديمة لا زلنا نراها حتى اليوم عند القبائل المتوحشه وأما الحجيرة الثانية فكانت كلها مكونه من الحجارة الكريمة وهي اصغر حجما من الاولى وتدل على نبوغ اهل قدماء المكسيكين فى الاشتغال بفن الحجارة الكريمة والتنميق .

انتقلنا بعد ذلك الى الحجرة الرابعة فرأينا فيها عدة صناديق الواحد فوق الآخر ولما كنت لم اعدها اول امس عند فتح الباب اذ كان امسى الوقت وهجمت جيوش الظلام فانى قد احصيتها اليوم فوجدتها تبلغ اثنى عشر صندوقا مكعب الواحد منها نحو ثلاثة ارباع المتر وكلها مصنوعة من خشب البقم السميك ثم رأينا مع هذه الصناديق عددا وافرا من الاقواس والنشاب مبعثرة فى هذه الحجرة وكذلك عددا آخر من حراب غريبة الشكل مصنوع بعضها من النحاس والبعض الآخر من الخشب وفى طرفه سن مدبب من النحاس ولم نر غير ذلك على أنى كنت تواقا لمعرفة محتويات هذه الصناديق ولذلك قد عالجت فتح أحداها وفى خلال عشرة دقائق رأيت من حولى يضطربون عند صرخة صرختها اذ قلت : الذهب ! الذهب !! اذ أنى فى الحقيقة لم اتمالك شعورى عند مارأيت أن الصندوق مملوءاً بقطع عملة ذهبية رباعية الشكل عليها بعض النقوش القديمة

وكانت دهشة المدعوين عظيمة جدا حتى انهم فتحوا افواههم جميعا ذهولا واستغرابا وهنا تقدمت فتناولت بعض هذه العملة وقدمت لكل من الحاضرين ثلاث قطع منها بصفة هدية فتقبلوها منى شاكرين

لم يبق لدينا غير الحجرة الخامسة والأخيرة ، أما الحجرة الخامسة فانها كانت تضم اليها أجمل الاثار من الوجهة الصناعية والتاريخية فلقد بهرت أبصارنا بالاوانى الذهبية المديدة المكدسة فوق بعضها ، منها ما كان مستعملا للزينة ومنها ما كان مستعملا للطعام وبين هذه الاوانى الم يده عدة اوانى مرمرية وخزفية لاعجب اذا قلت إن الانسان يقف أمامها حائرا لدقة صنعها ونحتها ، وأبدع ما رأيناه في هذه الحجرة كرسى كبير وهو على شكل (فوتيل) ويظهر انه كان خاصا بالملك بل قد يكون هو عرشه الذى كان يجلس عليه فانه كان يشبه تماما الكرسى الذهبي الجالس عليه التمثال فى الحجرة الثالثة وهذا الكرسى أو العرش جميعه من الذهب الخالص المرصع بالاحجار الكريمة ومنقوش على ظهره صورة قرص الشمس وهي مرسلة اضواءها فوق الافق ثم منقوش فى قمة الكرسى وعلى اطراف متكآت الذراعين اسم الملك (منتزوما)

وقد وجدنا فوق هذا الكرسي صندوقا كبيرا فيه بعض الملابس الموشاة بنسيج الذهب وهي تدل على شدة إتقان ومتانة النسيج فى ذلك الزمن ، اذ أنها كانت حافظة لجدتها تقريبا ، ثم رأينا عند أقدام الكرسى صندوقا آخر وجدنا فيه حليا عديدة يظهر أنها كانت خاصة بالملك والملكة مما كما شاهدنا جواهر هما القيمة والى كان من بينها تاج الملك وهو أثمن ما فى هذه المقتنيات وكان منمقا بالحجارة الكريمة ، ثم خنجر من الذهب المرصع بالفصوص الغالية وهو آية في الأبداع ويظهر أن الملك كان يستعمله ضمن حلى زينته .

وكان آخر ما متعنا به الطرف فى هذه الحجرة هو صولجان الملك وعدة عصى غريبه كانت فى الزاوية الشرقية من الحجرة وكان معها أيضا النشاب والاسهم التى كان يستعملها الملك

أما الحجرة الاخيرة وهى المقابلة للحجرة الاولى أى قاعة تابوت الملك فأننا قد عثرنا فيها على تابوت آخر ولكنه كان اصغر حجما من الذي رأيناه أولا ، الا انه كان محكم الاغلاق دليل وجود رفات فى داخله ، وقد فهمنا بالقريحة انه تابوت الملكة ثم تحققنا من صحة هذا الظن بواسطة النقوش المكتوبه عليه والتماثيل المبعثره حوله ، ويظهر

أن الملكة توفيت على أثر وضع لها فقد نقش على ظهر تابوتها صورة امرأة ذات عينين مغمضتين وحاجبين منتفخين واسنان بارزة من فمها المفتوح وهو دليل قرب عهدها بالوفاة ثم ثديين مرتفعين وهو دليل صغر عمرها ثم كتب تحت تلك الصورة هذه العبارة وهي التي اعتادت القابلة أن تلقنها للوالدة اثناء احتضارها وهى :

« قومى واستيقظي من نومك يا ابنتي فالصبح قد بزغ والنهار قد ظهر ، قومى واسمعى تغريد العصافير على الاشجار ، قفى يا ابنتي وتزيني بحلاك ، قفى واذهبي الى تلك الأمكنة التي تسحر الالباب مسكن أبيك الذى هو الشمس ، هناك يعيش المرء بفرح وسعادة وسرور وغبطة ، اذهبي مع الشمس محمولة بين ايدي النساء أخواتك اللواتى تسكن السماء وقد ذاقت حلاوة اللذة بصحبة الشمس أبينا جميعا »

وفى الحقيقة أن الولاده كانت معظمه عند الازتيك فما تشعر الزوجة بالحمل حتى يأتى لها أهلها واقرباؤها واصدقاؤها فيهنؤونها وماتنتهى من الوضع وتلد طفلا حتى يقيمون الأفراح والحفلات الشائقة وقد كانوا يعظمون هذا الحادث ويستقبلونه بتجلة واحترام لأنهم يعتقدون أنه يزيد في عنصر الدولة وقوتها ، كما كانوا يجلون

الوالدة اذا توفت على اثر الولادة ويعدونها كالاله ويصبح لها ذكراها الفخر والرفعة

وغير هذا وجدنا صندوقا به بقايا ملابس من «احرمه» و«شيلان» مما نراهما الآن فى بلاد المكسيك ولكن عبثت بها يد الزمان فأبلتها ثم كرسيا من خشب الورد مموه بالذهب ومرسوم عليه اشكال شروق الشمس وغروبها ثم عدة كراسى أخرى مغطاة بجلود بعض الحيوانات، واعجب مارأينا فى هذه القاعة بضعة تماثيل تعبر عن طرق تشويه الجماجم وذلك ان المكسيكيين كانوا يحبون تشويه شكل جمجمة رأسهم وهذه العادة لاتزال باقية فى بعض الجهات الآن ويختلف التشويه باختلاف البلاد والقبائل فمن شكل مثلث الجوانب بارز الى الوراء الى الجبين مفلطح بحيث أنه يظهر امتداد الأنف، وقد رأينا لذلك من بين هذه التماثيل تمثالا يمثل غرابة التشويه وكيفيته وهو يصور أمرأه تعجن رأس ولدها وهى جالسة على الارض وتريد أن تجعل رأس ابنها كشكل رأسها وأبنها جالس فى حضنها ورأسه بين يدى والدته تشوهه بألتين كأنهما مصقلين، ويظهر ان الاطفال كانوا يكرهون هذه العملية فترى من شكل التمثال ان الولد رافع يديه كأنه يصرخ

ويريد ابعاد الذراع الذى يعجن رأسه ، ولا شك أن هذا التشويه منذ الصغر يكمل بمرور الايام .

وكان من اغراض هذا التشويه عندهم تقوية رؤسهم وجعلها على أشكال مخصوصة لجعلها قادرة على حمل الاثقال فكانوا يربطون فى جباههم الأحبال التى يوثقون فيها احمالهم ولقد برعوا في هذه الصناعة اذ اعتادوا رؤية الحمالين منذ القدم اذ أنه بسبب عدم وجود الدواب فى بلادهم كانوا يكونون جماعات خصوصية لحمل الاثقال ونقلها من مكان لآخر بدلا من الدواب

وآخر ما طرفنا به من محتويات هذا الكنز المظيم كان تمثالا ذهبيا صغيرا يمثل أحد كهنة المعبد

كانت الساعة فى منتصف الواحدة تماما عند ما انتهينا من استطلاع كل ما في الغرف الستة ، فتقدم المدعوون نحوى وأخذوا يهنئونى واحداً بعد واحد ثم انصرفوا وانتهت الحفلة وهم يتحدثون عما شاهدوا من دفائن هذا الكنز الثمينة .

ما كاد خبر هذا الكنز الأثرى العظيم يذاع حتى أنتشر فى انحاء العالم من أقصاه الى أقصاه وأخذت أعمدة الصحف وأنهارها تفيض في وصف محتويات هذه الدفائن كما ظل مكاتبو الصحف

والكتاب في المجلات وغيرها تطنب وتعلى من قيمة هذه الآثار ونفاستها ، حتى تحرك العالم أجمع وأخذ السياح من البلاد الامريكية والاوربية وغيرها يتحول نحو بلاد المكسيك لمشاهدة هذه الآثار ، ثم ما كاد يذاع اسمي مقترنا بهذا الكشف العظيم حتى انهالت على برقيات التهنئة من أصدقائي ومعارفي حتى من الكونت نفسه والد لوسى وبقية اهلى وهم الذين لم يكونوا ليعلموا أين مقرنا وما آوانا حتى ذلك الوقت . . . .

٢٣

الشهرة

مضى علينا اسبوع بعد حفلة الافتتاح ونحن نعد الصناديق والنقالات وغيرها لصيانة هذه الآثار ونقلها الى متحف مدينة مكسيكو وفى ذلك الوقت كنت لاتجد بصحف العالم ومجلاته غير أخبار هذا الاكتشاف الذى اصبح هو موضوع أحاديث جميع الأندية والمجتمعات والافراد فى كل جهة كما اصبح اسم رولاند أديون هو موضع أعجاب كل من تحدث :

كنت مساء ذات يوم جالسا فى (صالون) المنزل أدخن سيجارتى واذا بلوسى مقبلة على بخطوات سريعة ووجهها يتهلل سرورا وبشرا وتحمل بيدها صحيفة نيويورك جورنال وهى تقول أنظر يارولاند ، فالقيت نظرة الى الصحيفة التى بيدها فاذابى أرى صورتى وصورة لوسى بجانبها وهما صورتان أخذتا لنا فى العام الماضى بباريس وبعد ذلك تناولت لوسى منى الصحيفة وقالت اسمع سأقرأ ماهو مسطور بشأننا هنا ، فأصغيت اليها وقرأت ما يأتى :—

يرى القارىء في أعلى هذا الكلام صورة المكتشف الشهير والاثرى الذائع الصيت المسيو رولاند أدعون مكتشف أطلال مدينة مكسيكو أو عاصمة الازتيك القديمة وبجانب صورته صورة صديقته مدموازيل (لوسى دارتوي) كريمة الكونت دارتوى من اشراف الفرنسيين ، ولقد نقلناهاتين الصورتين عن مجلة (لافرانس) التي تصدر بباريس وقد علقت هذه المجلة على هاتين الصورتين قصة جميلة رأينا أن نقتطف منها للقراء الكرام المعلومات الاتية :—

كان المسيو رولاند ادعون من الشبان النوابغ في جامعة باريس ولقد نال شهادة الدكتوراه في الحقوق والعلوم الاقتصادية منذ عام ونصف بفوز باهر كان فيه الاول على جميع اقرانه ونال بذلك مدالية الشرف الذهبية لجامعة باريس ولقد نشأت بينه في ذلك الحين وبين صديقته مدموازيل لوسى علاقات وداد وصداقة متينة أدت الى ارتباطهما برابطة الحب والغرام . على ان الكونت والد مدموازيل لوسى لم يكن يشأ أن يزوج أبنته من المسيو رولاند وكان عازما ان يزوجها من شاب فرنسى آخر ولما الحت عليه الفتاة في العدول عن هذا الرأى وابي عرضت على صديقها المسيو رولاند

فكرة السفر الى امريكا قبل ان ينفذ والدها مشيئته وفعلا فقد غادرا بلادهما بأول باخرة ابحرت اذ ذاك من ميناء الهافر واسمها «بون فوياج» وهي التي ذاع خبر اصطدامها باحدى الثلاجات وغرقها في شهر اغسطس من العام الماضي، ثم اذاعت بعد ذلك جريدة «نيويورك جورنال» خبر وصول المسيو رولاند مع صديقته الى نيويورك في أحد قوارب النجاة ووصفت المصاعب التي لاقوها في طريقهما مما لا يكاد يتصوره العقل، حتى وصلا الى ميناء «نيويورك»

وقد تمكنا بعد وصولهما من التوظف بالمصرف الفرنسي الامريكي حيث قضيا به عاما كاملا، وكان من حسن حظهما ان اشترى المسيو رولاند أحد سندات شركة بنما فربح هذا السند منذ اربعة اشهر تقريبا مبلغ مائة الف دولار، كانت هي أساس رأس مالهما الحالي الذي تحول الى ملايين الجنيهات بعد هذا الكشف الاثري العظيم الذي باشرا التنقيب عنه على اثر اعتزالهما خدمة المصرف في شهر يوليو الماضي «فأدى بهما البحث الى العثور على هذه الاثار العظيمة التي خلدت اسم »المسيو رولاند الى الابد بين اسماء العظماء والذي ترى حكومة المكسيك تقيم لتخليد عمله المجيد تمثالا برنزيا

اختارت له مكانا بالردهة المقابلة لدار عادياتها » انتهى

لا أكذبك القول أيها القارئ الكريم ، أنه ما بلغت لوسى من القراءة الى هذا الحد حتى امتلأت نفسي فخرا وكبرياء وكذلك شعرت لوسى بنفس هذه العاطفة فقالت :

ما أعظمك يارولاند من رجل خالد الذكر والأثر ، ألست ترى نفسك أنك بلغت من الرفعة والشهرة شأوا بعيدا .

نعم ياصديقتي وذلك من فضل الله .

والآن وقد تحققت كل آمالنا واصبحنا نملك الملايين من الجنيهات فأنى أبشرك بحياة سعيدة هنيئة لم يحلم بها انسان في هذا الوجود . ذلك ما ارجو وادعو الله أن يتمه علينا بخير

* * *

عينت الحكومة المكسيكية في خلال هذه المدة لجنة فنية للحكم على قيمة هذه الآثار والفصل في قسمتها بيني وبينها ولقد قدرت اللجنة قيم ما في الحجر الاربع عدا حجرتي التابوت وتقديم القرابين اللتين تنازلت عن نصيبي فيما احتوياه بمبلغ اربعة عشرة مليونا ومائتين وواحد واربعين الفا من الجنيهات وهو بالتفصيل كما يأتي

جنيـه	
١١٢٠٠٠٠	قيمة محتويات الحجرة الثالثة
٩٠٠٢٥٠٠	« « « الرابعة (منها ٩ ملايين من العملة القديمة)
٣٥٠٠	« « « الخامسة
٤١١٥٠٠٠	« « « السادسة
١٤٢٤١٠٠٠	الجملة اربعة عشر مليونا ومائتين وواحد واربعين الفا من الجنيهات

ثمنت اللجنة الاثار والاموال التى وجدت بالمبلغ الموضح بعاليه وخصصت لي نصفه وهو مقدار ما استحقه من هذا الكنز طبقا لنصوص التعاقد الذى بينى وبين الحكومة، على ان خزينة الحكومة لم يكن لديها كل هذا المبلغ من الذهب

ولذلك عرضت على أن استلم من العملة الذهبية القديمة التى وجدناها بالكنز بقدر نصيبي ولكنى فضلت أن اعطى أوراقا مالية وشيكات وحوالات تحت تصرفي لدى مصارف فرنسا وانجلترا ونيويورك ، وفي الحقيقة أنى لم استلم غير حوالات بمبلغ سبعة ملايين من الجنيهات فقط . لأن باقى استحقاق ويبلغ مائة وعشرين الفا وخمسمائة جنيه قد تنازلت عنه نظير أنى أخذت بعض الاوانى الذهبية والمرمرية وهي التى قدمتها أخيرا كهدية

المتحف اللوفر بباريس ثم بعض جواهر المملكة وتقدر بنحو مائة ألف جنيه وهذه قدمتها هدية للوسى . . !

بعد انتهاء التصفية بيني وبين الحكومة المكسيكية عزمت انا ولوسى على اتمام رحلتنا فى البلاد الامريكية ثم نعود الى وطننا المحبوب كما كنا عاقدين العزم اولا ، على انه فى اليوم الذى عزمت فيه على السفر قابلني مدير مصلحة الاثار بمنزلى ورجانى باسم الحكومة المكسيكية لتأجيل سفرى اسبوعين آخرين اشرف فيهما على اعمال الترميمات الجارية فى الهيكل المكتشف اذا صممت الحكومة أخيرا على اصلاحه وابقاء الاثار التى وجدت به فى مكانها مؤقتا حيث ان متحف العاصمة ليس به متسع لها ، ثم قدم لى المدير أيضا دعوة من الحكومة لرياسة حفلة افتتاح هذا المتحف الجديد (اى الهيكل) افتتاحا عاما . .

لذلك اضطررت الى تأجيل سفرى حتى يوم ٥ يناير القادم

٣٤

المرض

بينما كان رولاند يشرف على اعمال الاصلاحات الجارية فى بناء الهيكل كما طلبت اليه ذلك حكومة بلاد المكسيك، اذ سقط عليه من طرف البنيان المهدم حجر ثقيل نزل على جانب رأسه الأيمن فهشم عظام جمجمته من هذه الناحية فخر الى الارض مغشياً عليه يتدرج بين سيل يفيض بدمائه فأحدث هذا المشهد المؤلم هرجا شديداً بين العمال الذين هرعوا اليه فحملوه الى داخل الهيكل حيث حاولوا حبس الدم من النزول ولكن عبثا حاولوا حتى حضر الطبيب وكانوا استدعوه من مدينة مكسيكو حال وقوع الحادثة فحضر فى الحال وكان الخبر وصل لوسى أيضا فجاءت في الوقت نفسه مذهوبة الفؤاد وقلبها يخفق خفقانا شديداً مخافة ان يكون أصاب حبيبها شر :

ضمد الطبيب جراح رولاند وأجرى له الاسعافات الضرورية ولازمه حتي أفاق من غيبوبته ثم أمر بنقله الي منزله بالمدينة

فنقل حيث كانت صديقته لوسى تقوم له كممرضة ماهرة لأنها كانت قد مارست فن التمريض فى مستشفى باريس بعد برئها من مرضها القتال منذ ثلاثة أعوام ، ولقد استمر الطبيب يعوده يوما بعد يوم وهو يعلل القوم بقرب شفائه ، وقد عاده يوما فقال له أنه خير منه فى الأيام الماضية وأنه يستطيع أن يتنزه خارج منزله فى الهواء العليل وبين الخضرة الناضرة ، فرافقته لوسى فى مركبة الى خارج المدينة ، ساعة أخذا يتمتعان فيها الطرف بجمال الطبيعة ومشاهدها التى أثارت فى قلبيهما عواطف الحب والغرام فظلا يتناجيان ويصوران من حياة الهناءة المستقبلة مالم ينعم به مخلوق بعد :

أجل يالوسى ، لقد اصبحنا الآن من اصحاب الملايين فلن يقصر عن متناول يدنا شىء فى هذا العالم ، سيكون لنا قصر منيف يتحدث بجماله جميع الناس ، سنقيمه على ضفاف نهر السين بجوار مدينة باريس المحبوبه ، سيكون هذا القصر جامعا لكل شىء من لذائذ الحياة ونعمائها وسيكون لدينا خدم وحشم ومركبات وخيول وسيارات ومزارع وضياع ومعامل ومصانع وبالاختصار سنكون من اغنى اهل اوربا ، وسيكون لنا يخت كبير نشق به عباب

البحار والمحيطات حيثما شئنا وايثما ذهبنا ، سنسعد ونحيا حياة هنيئة طيبة ترفرف عليها اجنحة الحب والسلام ، وكذلك ستتحدث عن خيراتنا واحساناتنا السخية جميع الأصدقاء والاعداء ، سنبذل ونعطى ونواسى البؤساء والاشقياء ، وهكذا سنخلد لنا ذكرى حية طيبة فى عالم الخير والاحسان كما خلدناها من قبل فى عالم الشهرة والعظمة .

عزيزتى لوسى ، كم أحبك ويبتهج قلبي كلما رأيتك بجانبي ، بل ان قلبي طافح بحبك وليس فيه متسع المزيد ، بل هو يزيد الساعة بعد الساعة ولا ينقصه الا ان يتحد بك اتحادا ابديا لا يفت فيه كر الاعوام والايام .

ماذا عساني يارولاند أن اقول لك من كلمات الحب وأنا لا أجد مايفي بالتعبير عما تكنه نفسى من الغرام بك والوله بحبك ، انك لاتدرك مبلغ حبي لك ، ولو ادركته لادهشك تبريح الوجد بى ، وكيف اصبر نفسى الى ذلك اليوم الذي نرى فيه سماء احلامنا منيره بضياء الحقيقة فيتم هناؤنا ونجتمع اجتماعا لافراق بعده ، واذا كان حبك لى هو بمقدار حبي لك فاى سبيل للاحزان يتسرب اليك ابشر يارولاند ودع سحابة الكآبة تنقشع عن وجهك فأنك باذن

الله ستشفى من مصابك وتبرأ من مرضك وتعود اليك قوتك ثم تري امام عينيك ان الحياة لاتزال زاهية زاهرة .

روولاند ! ان الحب شريف طاهر فهو طريق الروح الى الله ومن كان قريبا من الله ومن سمواته فهو قريب من الرحمة بل وهو متشبع بها ممزوج بلبابها ، لذا كان الحب أرحم بنا من أن يفجعنا فى آمالنا ويقضى على أمانينا

لقد فتحنا له قلوبنا على مصارعها طول هذه الأعوام المديدة فنشأنا معه أطفالا وصبية وفتيانا ثم شبانا و كذلك بنت بين يديه تلك القلوب الخافقة كل آمالها الحسان وأمانيها الحلوة فهل يرضى الحب بعد أن تمهد تلك الآمال بالنماء أن يقف في طريقه ويرتد عنها او هل يرضى لنفسه خيانة العهد مع قلبين قد تعاقدا معه على أن يناصرهما و يعاونهما حتى يبلغا ذروة أمانيهما ؟

لا ، أنى لا أظن أنه يقبل لمقامه الاسمى ذلك المآل الدنيء فهو سيمضى فى طريقه الشريف وسيتضرع الى الآلهة ونحن من ورائه نأخذ بيده أن تبعد عنا الاقدار شرورها وبلاياها ، والآن فلندعو الله ياروولاند أن يعجل بشفائك ويدنينا من غايتنا ومقصدنا النبيل .

وكذلك أخذ رولاند ورفيقته يتناجيان ساعة طويلة من الزمن ثم عادا ثانية الى منزلهما عند غروب الشمس وفي ذلك المساء نام رولاند نوما هادئا .

عاد الطبيب في الصباح فرأى على محيا رولاند علائم القوة والنشاط وسيمى البهجة والسرور فهنأه بالصحة وبشره بقرب أبلاله من مرضه .

ثم قضي رولاند طول يومه مسروراً مبتهجاً ولوسى بجانبه تحادثه وتواسيه وتبثه غرامها ويبثها غرامه وعلى هذا المنوال أمضيا الوقت حتى أرخى الليل سدائل الظلام فآويا الى فراشهما وغرقا في سبات عميق حتى النصف الاخير من الليل فشعر رولاند بألم يضنيه ويؤلمه من حيث لايدرى فنادى على رفيقته من الحجرة المجاورة فأسرعت الى النداء وهي تضطرب في ثيابها فلما وصلت الى جانبه وسمعت أن دقات قلبه سائرة بنظام حمدت الله ثم سألته عن شكاته فحدثها عن ألمه الفجائي الذى سرى في جسمه ، فجست نبضه فوجدته عادياً ولم تلاحظ غير أرتفاع درجة حرارته إرتفاعا طفيفا لايستوجب استدعاء الطبيب فأخذت تلاطفه وتسامره حتى بددت ضياء الفجر ظلمات الليل والقت الغزالة عن

وجهها النقاب فأضاءت بأنوارها أرجاء الافق فأيقظت الازهار من سنتها والطيور من غفلتها وأخذت الكائنات تمسح عن جفونها مسحة الكري وكذلك ملأت الدنيا حركة وبهجة فعاد اليها بهاؤها .

حضر الطبيب في الضحي وظل يبحث عن مكان الداء في رولاند ولم تمض برهة حتي اسقط في يده ودخل الهم الى قلبه اذ علم ان مكروبا ساما من جرح رأسه قد سرى في مجرى دمه فسممه ومن جراء هذا ارتفعت درجة حرارة جسمه هذا الارتفاع الفجائى وقبل ان يخرج من قاعة المريض نظر اليه وابتسم له ابتسامة من وراء قلب كليم وشجعه وهون عليه أمره وانصرف وهو يحمل بين جنبيه هما أليماً لما أصاب هذا النابغة من القدر وداهمه من مرض عضال أخذ يتمشى فى جسمه تمشياً سريعاً حارت فيه قدرته وقدرة غيره من الاطباء .

ولم يمض يوم حتي كان مرض رولاند قد انتقل من دائرة نطس الاطباء الي تصريف القدر ومشيئة الرحمن فأمسى أمره موكولا الى إرادة القضاء . . .

٢٥

الهذيان

أخذ المرض يشتد برولاند اشتداد اللهيب في صميم الحطب واستعار الحب في سويداء القلوب فكان يغيب عن العالم ساعات طويلة وهو يهذي ويتكلم من حيث لا يدري ولا يعلم ماذا يقول ولقد كان من بين لياليه ليلة ليلاء، ما كان أطولها عليه وأشدها على نفسه الرقيقة وروحه المعذبة، فذرفت له العيون أي اذراف وبكته المقل أي بكاء وأدمت له الحشاشة فذابت والاكباد فتفتتت، قال فيما كان يهذي :—

دعوني أغمض عيني فقد مللت طول هذه اليقظة

دعوني أستسلم الى الكرى فقد تعبت جفوني من هذا السهاد

دعوني أسند رأسي الى أحضان الابدية حيث السكينة والخلود

دعوني أرقد تحت أجنحة الهدوء ولذة الراحة فقد أعيت جسمي متاعب هذه الحياة وآلامها

تعالوا انثروا الزهر حولي وانظروا كيف تخلع الروح ثوب شبابها متهللة مستبشرة للقاء وجه ربها الكريم !؟

هاهي تترقرق بين الشفاه تريد الخلاص من ذلك القفص الضيق حيث دامت فيه ثلاثين عاما تسام الشر وخسف العذاب

هيا اغمضوا جفني ودعوا شفاهكم تودعها لثماتها الاخيرة

تعالوا ايها الفتيان استودعوا رفيق صباكم التحية الأبدية وسلام الوداع ، وأنتن أيتها الفتيات أغمرنه في ساعته الاخيرة بعطف قاو بكن المستفيض، وأنتم ايها الشيوخ هيا فباركوا بأيديكم الناحلة فتى سيقف بين يدي ربه بعدفائق معدودة ، تعالوا افزودوه بحكمة الاجيال الماضيه قبل ان يتنسم نفسه الاخير في هذه الحياة .

قفوا جميعا حوله واذكروا الله وجلاله ، اذكروا الموت وهيبته اذكروا الماضي وحسناته ، ثم اقرأوا ماتخطه أيدي الابدية على جبينه .

وأنت ياحبيبتي لوسي ، تعالى ، اقتربي مني ، وطوقي عنقي بذراعيك ثم دعيني اسكب نفسي في نفسك واتزود لحياتي الاخيرة من عذب غرامك ، تعالى فاسمعي دقات قلبي وهي تنبض باسمك وتردد نغمة حبك ، أنصتي قليلا تسمعي صوت حشاشتي وهي تفري

لفراقك وكبدي وهو يحترق للنأي عنك ، آه يامهجتي ويا آمالي ،
يقولون أن الارواح خالدة باقية ولكني لاأظن أن روحي كذلك
لانها ستفني ايضا في عالمها الاخير عند ما تشعر بتلك المسافات
الشاسعة التي أنأتها عنك وحرمتها رؤياك ومناجاتها لفؤادك ،
أجل يالوسي فليس بعد فراقك بقاء أو خلود وانما ذهاب وفناء .

تعالي اسعديني بنظرة أغمض بعدها عيني فتكون هي كل
ذخري من الحياة !

لوسي ، تعالي وانظري كيف يفارق الانسان الحياة والحب لا
يفترق منه لان الحب هو من روح الله وروح الله خالدة باقية فالحب
خالد باق ، لاتظني أن حبك سيفني بفناء هذا القلب الذي ستأكله
جوانب القبر ويلتهمه أديم الارض ، لا ، لا ، بل ان ذرات هذا القلب
المتفتت المتآكل المختلط مع ذرات الثري سيترعرع وينبت ازهارا
تعطر الفضاء بأريجها الممزوج بالغرام أو تنشر مع الهواء والرياح
تسبح بحبك في كل ارجاء هذا الكون وانحاء هذه المعمورة .

لوسي ، عيشي وقري واحيي حياة سعيدة هنيئة فحسبي سعادة
في حياتي الاخيرة ان اسمع عنك انك تتمتعين بحياة راضية صافية ،
بل وحسبي ان روحي السابحة في الجو الحالقة في الفضاء تراك

تتعهدين قبرى بالزيارة فتندى عليه اسباغ رحمتك ورضوانك :

سلام عليك يالوسى الى حين اللقاء ، سلام موعدنا منه فى عالم البقاء ، سلام تحمله اليك اضواء الشمس فى اليقظة وشفاه الملائكة فى الاحلام

وأنتم يااخوتى تعالوا ودعوا قبلاتكم تلتقى بأنفاسى الضعيفة تقدموا لاسمر لكم كلمتى الاخيرة :

امسحوا الدموع عن أجفانكم وانظروا الى السماء استمطروها الرحمة والرضوان . دعوا المحبة تربط قلوبكم وتقرب نفوسكم وتحبب اليكم الحياة ولتكن العمل والجهاد فى هذا العالم رائدكم والعلياء مطمح نفوسكم ، كدوا وخلدوا ذكرى طيبة من ورائكم ، ولتسيل منابع الرحمة والشفقة من قلوبكم لاهل البؤس والشقاء ، اذكروا المعروف وصنعه والخير وفعله .

اذكروا أمكم المحزونة فقدسوها فى هيكل المحبة والأخلاص أجلوها واعطفوا عليها ، اذكروها بالخير دائما ، ولا تلمسوها بأذى أذكروها وقد ضحت راحتها وهناءها وراء سعادتكم ، سبحوا بحمدها ما حييتم وارفعوها فوق أفئدتكم

ثم اذكروا بالرحمة ابا كان بارا بكم قد ضمته أحضان الأبدية

وهو يتوق لاستنشاق زهرة حياتكم

أذكروا الاهل والاصدقاء وصلوهم العطف والمودة، اذكروا من اسدى اليكم جميلا ومن ذاد عنكم شراه

اذكروا بلادكم والوطن، اذكروا حريتها واستقلالها، أبذلوا مهجكم ونفوسكم في سبيل الذود عنها والعمل على اسعادها لا تجبنوا وكونوا في مقدمة الصفوف وقدموا عن طيب خاطر ورباطة جأش كل شئ حتى الجسد والروح.

اذكروا الله كلما اصابكم خير اونزل بكم شر واسألوه الرحمة والمعونة فهو خير الراحمين

والآن اقتربوا مني جميعا واودعوا شفتي قبلاتكم الحاره.

ها انا قد صرت بعيدا بعيدا جدا عن هذا العالم. لقد توارى عن بصري ذلك الأفق ومافيه من بهاء وجمال ، هاهي اشعة الشمس الذهبية تذبل أمام عيني وهاهي الطيور المغردة تختفي وراء أوكارها هاهي الخضرة والمزارع يغشاها ثوب الظلام ، وهاهي البنيان والمدائن تغور في باطن التراب ، هاهي المياه الفضية تجف بين مجاريها وفي قيعانها ، وهاهي التلال والوهاد تندك وتندثر فلم يبق من مرتفعاتها او منخفضاتها تجاه عيني من أثر ، هاهو كل شئ

يختفى من أمامي ويتوارى وراء ذلك الحجاب الابدى ، ها انا لم أعد اسمع تلك الطيور الشجية ولا صوت النسيم العليل وهو يلثم ثغور الازهار الزكية ، هاقد هدأت نغمات الامواج وخرير المياه وتلاشت اصوات المارة وضجة الرائحين والغادين ، لقد شملنى سكون تام وخيم على هدوء عميق ، لقد صرت بعيداً جداً عن هذا العالم هاهى الارض وماعليها والسماء وماتحتها قد اختفت عن انظارى لقد انتقلت الى عالم آخر وراء هذه القبة الزرقاء ، الى ذلك العالم الأبدى عالم الأمان والسلام حيث لم أعد أسمع غير تسبيح الارواح بذكر الله ونغمات الملائكة بأناشيد البقاء والخلود .

هيا تعالوا اخلعوا عنى ثوب هـذا العالم الفاني وكفنونى بأوراق الفل والريحان .

انثروا الورد والازهار حولى وجففوا الدموع ولا تندبونى

تهللوا وانشدوا الاغانى ولا تزعجوا روحى وهى ترفرف حولكم بصراخكم وعويلكم .

لا تملأوا القلب بأنينكم ولا تعيدوا اليه ذكرى آلام الحياة الماضية .

ابعدوا عنى الأحزان وكفوا نحيبكم فكفى ما أصابنى

ثلاثين عاما .

دعوني أرقد هادئاً بين مضجعي تمرني السكينة وتضمني الراحة الى احضانها

لاترتدوا السواد حزنا على بل البسوا البياض فرحا معي .

لاتذكروا غيابي بالغصص والالام بل حولوا أبصاركم تجاه رسمي تجدوني ماثلاً أمامكم او أرسلوا بأشعة عيونكم فيما وراء الخيال تجدوني حاضراً بين ايديكم .

مددوني بين احضان الزهر والاغصان وارفعوني على الاكتاف ثم سيروا بي ببطء الى مدينة الاموات .

هناك بعيداً عن ازدحام القبور ، احفروا لي مرقداً في الثرى قريباً من المياه الجارية والاشجار الباسقة حيث تأتي الطيور المغردة لتأخذ مكانها من اوكارها أو تنتهل من عذب سلسبيلها فتشجي بنغماتها ارجاء القبر الموحش وحيث تنعكس سلاسل الشمس الذهبية او خيوط القمر الفضية فتضيء بنورها ظلمات القبر وتزيل عنه قليلاً من مخاوفه .

احفروه عميقا بين طيات الثرى حتى يكون بينه وبين ذلك العالم المنكود سداً منيعاً وحاجزاً لا تقوى على هدمه الأيام

ثم واروني التراب وخففوا من ضربات معاولكم ودقات فؤوسكم .

ثم اغرسوا ازهار الفل والياسمين والورد والريحان فوق قبري وحول جوانبه حتى تمطر الجو بأريجها نائرة طيب ثراي الممتزجة برائحة قلبي على جناح النسيم العليل تذكر الغادي والرائح باحلامي الماضية وأمالي السالفة .

والآن فلتتفرقوا عني بهدوء ولتعودوا ايها المشيعين من الاهل والاصدقاء .

ارجعوا الى منازلكم واهنأوا بحياتكم ، ارجعوا ولا تذكروا يومكم السالف

تناسوه ولا تقيموا لهم سبيلا الى نفوسكم ، لا تذكروني بل اذا ذكرتموني اذكروا الله وسبحوه واغتبطوا لغبطتي فتلك هي الحياة الخالدة الطاهرة التي طالما تاقت اليها نفسي وها هو المولى جل شأنه قد اختصني برضوانه فرفعني الى جواره دون أترابي فحمدا لك يا الهي وشكرا لهذا الرضوان...

٣٦

الموت

لم يكن الرجاء في شفاء رولاند غير أمنية خلوبا وحلما مكذوبا فلقد دخل في النزع في الليلة التالية لهذيانه ، فكانت صرخاته وتأوهاته الأليمة دليل شدة ماعاناه من العذاب ، كنت تراه يستكين ويستسلم كأنه يسلم الى رسول المنية وديعته وتارة ينتفض ويصرخ كانه يتشبث بأذيال روحه المرتفعة الى السماء .

نادي باسم « لوسى » مرتين او ثلاثاً ونظر تجاهها نظرة فاترة فانحنت نحوه وقبلته قبلة حارة وعندئذ التفت وأشار بأصبعه نحو مكتبه وطلب قرطاسا وقلما فقدمتهما اليه لوسى فأمسك القلم بيد مرتعشة وكتب هذه العبارة «أوصى بنصف أموالى الى صديقتى لوسى أعترافا بوفائها واخلاصها وبالنصف الآخر لأهلى واسرتى » ثم رأته قد ارتمي منهوك القوى على فراشه وأخذت قطرات الدمع تفيض من جفنيه بهدوء ثم فاضت روحه .

اقتربت منه عندئذ ونادته فلم يجبها ، فأسبلت جفنيه وقبلته

قبلة أخرى ثم جثت بجانبه تندبه وهي تختنق بالدموع والعبرات.

واهاً عليك ياعزيزى رولاند! ماذا عزمت عليه وما الذي وطنت نفسك به. هل أزمعت الرحيل وهل ضاقت بك الدنيا فآليت الا هجرها، أين وعودك لى يارولاند؛ هل قبرت حبك هل قتلت تلك النفس التي تشتعل بنار غرامك؟ هل اطفأت تلك المهجة التي تتقد بلهيب وجدك؛ هل نسيتني؟

وهل تنسى الالهة عبادها؟ هل ترضى لى الشقاء والآلام من بعدك؟ ماذا فعلت يارولاند؛ هل تبدل قلبك من تلك الرحمة الفائضـة الى تلك القسوة القاتلة؟ هل سولت لك نفسك أن تميتني حسرة؛ أم هل سئمت رؤياى فأزمعت الا الفراق الابدي أجبنى يارولاند وابتسم وابتهج، لاحيا بجانبك وأنتعش ببهجتك مالى أراك صامتاً ساكناً، هل ضعفت عزيمتك؟! وأنت ذلك القوى الشجاع الذي لم تزعزعه العواصف ولا الامواج ولم ترعبه الزلازل ولا الشهب؛ تيقظ يارولاند وتحدث الى كما كنا نفعل.

هيا نبنى قصور الآمال ونشيد مدائن الامانى والاحلام، دعنا نناجي القمر فى شروقه والشمس فى غروبها، تعالى الى نسيم بين الرياض وعلى ضفاف الجداول نجد الحب ونتعبد الغرام،

قم واسمع نغمات الطيور وتغريد العصافير وهي تنشد اغانيك وأناشيدك وتغنى بعظمتك وسؤددك .

قم تراهم يشيدون تمثالك الناطق بفضلك الشاهد على عظمتك الخالد بجلائل اعمالك ، قم وحي الجموع التي حولك وهي تهتف في الفضاء باسمك وتردد تحيتك .

رولاند ، رولاند ، هل نسيت المودة الى ارض فرنسا المحبوبة ، هل نبذتها وهى التي تحبك ؟ رولاند ، اجب الوطن المحبوب ، انه يناديك أن تعالى وشرفه بفخرك ومجدك .

أنظر يارولاند تجدني في ثيابي البيضاء متأهبة للزفاف بك تقدم ترى ذراعي ممدودة لمعانقتك ، تيقظ فان ثغرى المتعطش لشفتيك يريد ان ترويه برحيق قلبك .

رولاند ، يابهجة العيش ماللعيش بعدك من طعم ولا للحياة من لذة .

ماذا يهمني من هذا العالم ومافيه من سماء صافية وكواكب منيرة وأرض ناضرة وحدائق زاهرة ومزروعات باسقة ، ماذا يهمني من الثروة والجاه والعظمة والشهرة والقوة . والسعادة والسرور ، ماذا يهمني من كل ذلك يارولاند وأنت لست بجانبي

عفاء على الدنيا ياورولاند فلقد صارت فى عينى أرضا مجدبة قاحلة لا راحة فيها ولا هناء

ما أتفه الحياة بدونك ياورولاند، ان كل لحظة فيها أبدية مملة هل أبقى لأعيش بعدك؛ لا، لا، لايمكن أن يكون ذلك. ان أحلامنا لم تتحقق فى هذه الحياة فها انا لاحقة بك الى العالم الباقى لنحققها فيه كما نشتهى ونرضى.

الا سحقا لك ايها الموت ما أظلمك تصيب ولاترحم وتأخذ ولا تعطى، وتختار ولا تنصف فبالله الاحكمت فعدلت، وقضيت فى أمرى فقضيت، فتصعد الى السماء بروحى وتنزل الى القبر بجسدى ثم تدعنى حيث ألتقى بالروح التى طالما سعدت معها بأيام ما كان أقصرها وساعات ما كان اهنأها وأنعمها

سلام عليك ياورولاند من كبد مقروح، سلام عليك من فؤاد موجوع، سلام عليك من حشاشة ذائبة، سلام عليك من مقلة دامية، سلام عليك من نفس فانية.)

سلام ثم سلام وانى باقية على حبك ثابتة فى ولائك، قسمة أن لا أنساك فالى اللقاء الى اللقاء ...)

النهاية

لم تنتفع الفتاة المسكينة بنفسها بعد اليوم الذي دفنت فيه حبيبها رولاند فقد زهدت العالم وما فيه والحياة وما شملت فوهبت كل ما ملكت يداها الأعمال البر والاحسان ومواساة الفقراء والمنكوبين تخليداً لذكرى حبيبها وصديقها رولاند كما وهبت نفسها الى العذراء فسكنت الى الدير لعلها تجد في حياة العبادة تخفيفاً لآلامها واندمالا لجراح قلبها ونسياناً لماضيها ولكن الحزن كان قد نشب فيها أظفاره فنال منها مالم ينله من الايامى والثاكلات فأصبح من يراها يرى فتاة شقية بائسة ، ومخلوقة تعيسة منكوبة ، مذهوباً بها كل مذهب تهيم في كل مكان ، تارة تراها عند المحراب راكعة تتوسل وتتضرع الى الله أن يقرب من أيامها ويدني من ساعتها ، وتارة تراها جالسة الى مقعد مكبة برأسها بين يديها تبكي وتنتحب ، وطوراً تجدها رافعة وجهها الى السماء تستمد من عليائها الرحمة والمغفرة وطوراً تسمعها تهتف وتصرخ ، رولاند ؟ رولاند !! ولم يزل هذا شأنها حتى رآها بعض رفيقاتها في صباح يوم من الايام ملقاة في فناء الدير جثة هامدة ضحية غرامها ووفائها فبللوا بالدمع تربتها وبكوا عليها بكاء مراً كان هو كل ما نالها من الرحمة في هذا العالم . انتهى

فهرس رواية الشهداء